الفصل الثانى

طابع المجتمع الإسلامى

● دعوة الاسلام هى دعوة الى التحول عن الجاهلية والمادية ـ المجتمع الاسلامى هو مجتمع الروابط الانسانية ـ المساواة فى الاعتبار البشرى مبدأ أساسى ـ رسالة الله قد تعد بمتعة الدنيا ـ دين الله يسوى بين قيمة العمل وأداء العبادات ـ دين الله يمقت القول الكثير والعمل القليل ـ اتباع دين الله لا يحمل المتبع له على أن يمتن بايمانه ـ المشاركة فى الايمان هى وحدها التى تؤمن الثقة ـ التانى فى قبول أخبار الأعداء سمة للمؤمن ـ اشاعات السوء يجب أن تقابل بالحذر ثم بعدم تناقلها ـ الاجتماع سراً بين المؤمنين يجب أن يستهدف البر والتقوى ـ من ليس ولاؤه للمجتمع الذى يعيش فيه ، لا يسوى فى الحقوق بافراده ـ لا يدفع غضب الأثرياء من أصحاب الحاجة فى المجتمع الى امساك العطاء عنهم ـ مشقة ابتلاء المؤمنين هى السبيل الى الجزاء بالخير ـ ابتلاء المؤمنين بالشدة أمر مقدور لله ـ قد يكون الطريق الشاق هو السبيل الى خير المجتمع ـ الايمان والقتال ـ من يدعو الى الخير والصلاح فالله يقيه السوء ـ اطمئنان المؤمن الى ولاية ربه ـ الحرية هى سبيل العدالة الاجتماعية ـ اداء الصوم هو الطريق الى الحرية .

طابع المجتمع الاســـلامى

● **دعوة الاسلام ، هى دعوة الى التحول عن الجاهلية والمادية :**

يقول القرآن الكريم فى شأن بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« **لقـد منّ الله على المؤمنـين اذ بعث فيهـم رسـولا من أنفســهم** (أى ليس أجنبياً عنهم فى لغتهـم ، ولا غريبـاً عن بيئتهم وأحوالهـم التى يعيشـــونها) **يتلوا عليهـم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** » (١) .. وقد كانت مهمته عليه السـلام بينهم : أن يبلغهم آيات الله فى كتابه وهو القرآن المجيد ، حسبما كانت توحى إليه .. وأن يدعوهم إلى تطهير أنفسـهم من العادات التى كانت تسـيطر عليهم ، والسبل التى كانوا يسلكونها فى حياتهم .. وأن يعلمهم أخيراً ما فى كتاب الله من مبادىء وحكم ، تقوم عليها أمتهم وتتميز بها جماعتهم . وهى مهمة ليست سهلة . لأن الناس على عهده عليه السلام كانوا فى ضلال مبين .. كانوا فى شرك ووثنية .. كانوا فى مادية وجاهلية .

فدعوة الرسول عليه السلام التى كانت قائمة على تبليغ الوحى الإلهى تنحصر فى أمرين رئيسيين :

الأمر الأول : تطهير الناس من شركهم ووثنيتهم وجاهليتهم . أو كمـا عبّر القرآن : بأنه يزكيهم أى ينميهم فى مستوى الإنسانية وينقلهم فى هذا المستوى من مرحلة إلى مرحلة أخرى بعدها ، أبلغ فى هذا المستوى ، حتى يتمه . فإذا تم هـــذا المســـتوى أدت الدعـــوة غايتهـــا الأولى : « **اليـوم أكملت لكم دينـكم وأتممت عليـكم نعمتى ورضيت لكم الاسـلام دينا** » (٢) ..

الأمر الثانى : نقل الناس من ضلال مبين وحيرة وتخبط إلى عهد حضارى

---

(١) آل عمران : ١٦٤ (٢) المائدة : ٣

إنسانى ، قوامه ما فى القرآن من مبادىء وحكم ، وهى مجموعة من المبادىء تكوّن نظاما اجتماعياً ، واقتصاديا ، وسياسياً ، وسلوكاً أخلاقياً ، يكفل لهم الترابط القوى ، وينقذهم من التمزق والفرقة التى تسود المجتمعات المادية عادة : « **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً** » (٣) ..

.. والدعوة الإسلامية إذن هى دعوة إلى تحول اجتماعى يسبقه صباغة الفرد أو صبغته بصبغة الله . وهى دعوة كذلك إلى حضارة إنسانية تقودها الحكمة ، وتؤصلها المبادىء العامة .

والتحول الاجتماعى القائم على صباغة الفرد معناه : أن المجتمع لا يسبق الأفراد ، وتملى قيادته أو واقعه عليهم التوجيه والصباغة . وإنما الاهتمام أولا فى هذا التحول بالأفراد . يعرض عليهم الإسلام فمن قبله فى حرية ومشيئة تامتين ، وفى غير خوف على رزق أو حياة ، التزم به وبمبادئه . وممارسته عندئذ ممارسة ناشئة عن حرية لا يشوبها إكراه ما ، ولذا ما يؤديه من عبادات الصلاة والصوم ، والزكاة ، وإن كانت واجبات تؤدى ، إلا أن أداءه لها فيه تقرب إلى الله . ولا يتقرب إنسان ما بشىء إلى موجود ما إلا إذا كان ما يتقرب به أمراً مرغوبا فيه من الطرفين ، وهذه العبادات الثلاث كفيلة بأن تصبغ الفرد بصبغة الله . أى تحوله إلى لبنة مهذبة أو مشذبة فى بناء المجتمع . أى تجعله صالحاً وذا أهلية للترابط مع أمثاله . ومنه ومن أمثاله يتكون المجتمع الإسلامى ، فقيام المجتمع الإسلامى متأخر عن أفراده . وأفراده منتخبون من ذواتهم . وهم أحرار فى اختيار أنفسهم له .

أما الحضارة الإنسانية التى تقودها حكمة القرآن وتؤصلها مبادئه العامة فهى حضارة غير مادية ، هى حضارة قيم عليا فى حياة الإنسان .

والمؤمن برسالة المصطفى عليه السلام إيمانا خالصا بها ، هو إنسان حضارى . على معنى أنه يطبق القيم العليا فى حياته وفى علاقته بالآخرين معه . هو إنسان سلام ، وعدل ، وإحسان . هو إنسان تعاون ، وتواد ، وتكافل . لا يعرف الحقد ، ولا سفك الدماء ، ولا اللاأخلاقية ، ولا الغدر ، والنفاق .

---

(٣) آل عمران : ١٠٣

إنه ترك بإيمانه الضلال : إلى الهداية ، والمادية : إلى الروحية الإنسانية ، والجاهلية : إلى الحكمة الإلهية . وأصحاب الحضارة التيكنولوجية العلمية قد يكونون متخلفين فى الحضارة الإنسانية التى قوامها الروابط الإنسانية .

* * *

● **المجتمع الاسلامى مجتمع الملاك والعمال معاً :**

نوعان من المجتمع المعاصر يصارع بعضهما بعضا اليوم ، ويتربص أحدهما بالآخر : مجتمع أصحاب رؤوس الأموال أو الملاك .. ومجتمع العمال أو البروتاليا .

أما مجتمع أصحاب رؤوس الأموال ، أو الملاك فهو المجتمع الذى يسلم قيادته وتوجيهه ، كما يسلم الرعاية وضروب المنفعة المختلفة فيه ، إلى من يملكون المال وحدهم . ومن ضروب المنفعة التى تؤول إليهم : العمل فى أموالهم ممن لا يملكون المال : فى مصانعهم .. فى مؤسساتهم المالية والتجارية .. فى مزارعهم .

فالملاك هم أرباب العمل ، والعمال أجراء عندهم . ومهما يكن من عدد العمال وكثرتهم فى المجتمع الرأسمالى فإن الكلمة فيه أخيراً لأصحاب رؤوس الأموال : فى السياسة .. وفى التشريع .. وفى السلطة التنفيذية . والأمر فى هذا المجتمع لا يدور مع الكثرة العددية ، بل مع أصحاب السلطة والنفوذ ، وهم القلة التى تملك . ومن أجل ذلك كان مجتمعاً رأسماليا ، أو مجتمع ملاك .

وأما مجتمع العمال أو البروتاليا فهو المجتمع الذى تملك فيه الدولة رأس المال ، وتباشر فيه مهمة رب العمل : فى تحديد نوع العمل للعاملين وفى تحديد أجورهم .

ومجتمع العمال يقوم لينهى ــ كما يقال ــ ما يسمى بالصراع الطبقى ، وهو الصراع بين القلة صاحبة رأس المال وصاحبة النفوذ فى المجتمع ، والكثرة من العمال الأجراء الذين يعملون فى أموال هذه القلة . وهو صراع يملك فيه أصحاب رؤوس الأموال : تحديد الأجور وساعات العمل وزيادة

الإنتاج ، بينما تطالب فيه الكثرة العاملة بتحسين أوضاعها الاجتماعية فى السكن ، والانتقال ، وضروب النشاط الاجتماعى ، وبرعايتهم الصحية فى أداء العمل ، وبتوفير أنواع التعليم والمهارات لها ولأولادها .

والصراع بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال هو صراع قد تتحكم فيه الأنانية فى جانب أصحاب رؤوس الأموال ، كما تتحكم فيه الميول التخريبية والنشاطات المغرضة التى يوحى بها الاستعمار الشيوعى للطبقة العاملة .

والفساد الذى يشيع فى المجتمع الرأسمالى إذن يعود إلى أنانية الملاك من جانب ، ونزعة الحقد والتخريب لدى العمال فيه من جانب آخر .

ومجتمع العمال إذ ينهى فى الشكل الصراع الطبقى لا يوفر للعمال ظروف الحياة الكريمة . وإنما يصبحون أرقاء لما يسمى بالدولة فى المجتمع . والدولة هى عصابة الحكم من رجال الحزب التى تتولى الوصاية على الحركة العمالية إلى أن يتحقق ما يسمى بالحكومة العمالية العالمية !! . ويصبح مجتمع العمال شكلا من أشكال الرق الجماعى ، لا تمارس فيه الحرية فى صورة ما . وبالأخص حرية الملك .. وحرية الرأى .. وحرية الانتقال .. وحرية العمل .

أما الإسلام فلا يرى صلاحية أى من نوعى النظام المعاصر فى المجتمع بالنسبة لكرامة الفرد وحسن ترابطه بمن معه فى المجتمع . لا يرى صلاحية النظام الرأسمالى لأن أنانية أصحاب رؤوس الأموال أو الملاك فيه تحول دون أن تكون هناك سكنى واستقرار ، ومودة ، ورحمة بينهم وبين الأجراء فى أموالهم وهم العمال . والسكنى ، والمودة ، والرحمة هى الأهداف الرئيسية التى حددها القرآن للمجتمع البشرى فى قول الله تعالى : **« ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »** (٤) .. فالأنانية فى ملكية المال وفى منفعته تجعل هناك شحا فى رعاية الآخرين وهم العمال ، مما يملأ نفوس هؤلاء بالحقد والبغضاء ، وروح الانتقام والتخريب . كما أن النزوع إلى التخريب لدى العمال فى أموال أصحاب رؤوس الأموال ، تحت ضغط

---

(٤) الروم : ٢١

الإثارة الخارجية من جانب الشيوعية الدولية ، هو بمثابة حرب تقوض كل ما قد يعمل لإرساء العلاقات بين الملاك والعمال على أساس من الروحية الإنسانية ، التى تعلنها الآية الكريمة هنا .

ولا يرى الإسلام صلاحية نظام المجتمع العمالى التى تملك فيه الدولة رأس المال ، كما أنها هى التى تسخر العمال ، وبذلك تجمع بين الملكية ، وتوجيه العمال . بالإضافة إلى ما لها بحكم كونها الجهة الحاكمة من مباشرة التحكيم فيما يجد من خلافات بين أرباب العمل والعمال أنفسهم . لا يرى الإسلام صلاحية هذا النظام لآثاره السلبية على العمل وعلى العاملين معاً . فالعمل سيضعف ، إن فى كمه أو فى نوعه ، لأنه ليس له صاحب حقيقى يرعاه ويباشر تنفيذه . والعمال سيجدون أنفسهم فى مجال يساقون فيه إلى العمل ، من غير أن تكون لهم رغبة حافزة نحوه . إما لعدم كفاية الأجور .. أو للتفرقه الواضحة بين عامل وآخر دون أن تكون هناك ميزة فى المهارة والكفاية والإنتاج للتميز على غيره .

وملكية المال للدولة ـ أو للشعب كما يقال ـ هى ملكية اعتبارية . وواقع الأمر أن المال عندئذ بدون مالك حقيقى ، وبالتالى بدون حراسة ورقابة ، والمجتمع الذى تملك فيه الدولة وحدها هو مجتمع بدون مالكين ، أو مجتمع عاملين فقط . وذلك ضد طبيعة الوجود . لأن الوجود فى طبيعته يقوم على « الزوجية » . أى على الشىء ومقابله . والنوع الإنسانى إذ وجد على أساس الذكورة والأنوثة معاً ، فإن قيام مجتمعه وصلاحية أمره يقوم على التقابل نفسه .. يقوم على وجود من يملك فيه المال ، ومن لا يملكه ، ولكن يعمل فيه .

وقول الله تعالى : « **أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون** » (٥) .. يوضح أن تفاوت الناس فى ملكية المال يستهدف إلى تحقيق التكافل بينهم . وهو تكافل صاحب المال مع صاحب الطاقة على العمل . فقسمة الله لمعيشة الناس فى

---

(٥) الزخرف : ٣٢

الحياة الدنيا اقتضت أن بعض الناس يملكون ، والبعض الآخر لا يملك منه . ولكن لديه طاقة على العمل . فوجود المالك ووجود العامل معاً هو لتحقيق التزاوج والتماسك فى المجتمع . والمجتمع الإسلامى إذن ليس مجتمع ملاك فقط ، بمعنى أن تكون السيادة فيه لمالك المال وحده . وليس كذلك مجتمع عمال فقط بمعنى أن الدولة وحدها هى التى تملك المال ، لأن المال عندئذ يكون بغير مالك . ولذلك إذا كان المال أصلا ملكا لله فاستخلاف الإنسان عليه حدد حقيقة المباشر له .

ومع أن بعض أفراد المجتمع يملك المال حسب نظرة الإسلام ، فإن هذا البعض لا يطغى بالمال ولا تتحقق له سيادة نافذة فى المجتمع عن طريق ملكيته له وبذلك يختلف المجتمع الإسلامى عن المجتمع الرأسمالى . فالمال أصلا هو لله وحده ، ومالكه من الناس مستخلف عليه ، فى تنميته وفى إنفاقه ، طبقا لما جاء فى كتاب الله خاصا بتنمية المال وبإنفاقه معاً . فالله يبعد فى التنمية طريق : الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل . كما يبعد فى الإنفاق التقتير ، والبسط . واستخلاف المالك على ما يملك من مال هو فى واقع أمره ابتلاء من الله له : أيسير المالك فى تنميته وإنفاقه طبقا لوصايا القرآن ، كتاب الله جل شأنه وصاحب المال على الحقيقة ؟ : « **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات** (أى فى ملكية المال) **ليبلوكم فيما آتاكم** » (٦) ..

وفى الوقت نفسه ينظر الإسلام إلى المال على أن له وظيفة اجتماعية . وهى أن منفعته سواء لمن لا يملك . إذ طالما أنه لله على الحقيقة ، والله للجميع ، فمنفعته يجب كذلك أن تكون للجميع . وإن وقع فى استخلاف البعض دون البعض الآخر : يقول الله تعالى : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون** » (٧) ..

واذا كانت منفعة المال لمن يملك ولمن لا يملك على السواء ، فالمالك كالعامل سواء بسواء . كلاهما له مصلحة فى المال ، وكلاهما له مصلحة فى

---

(٦) الأنعام : ١٦٥ (٧) النحل : ٧١

العمل فيه . فالمالك إن بدت له مصلحة فى العمل فى ماله ، فالعامل له مصلحة حقيقية كذلك فى مال المالك ، عدا أنه يؤجر على عمله فيه . وهى مصلحة المشاركة فى منفعته العامة . فهو على فرض أنه سيعجز عن العمل فمصلحة المشاركة فى منفعته باقية له ، يأخذ منه ليعوض عن عجزه وعدم صلاحيته للعمل .

وعمارة الكون إذن ــ والمجتمع صورة من صوره ــ تقوم على المالك والعامل معاً . المالك يحرس ماله ويباشر تنميته . والعامل يعمل فيه ويؤجر على عمله . ولاتتم هذه العمارة بسيادة الملاك وحدهم عن طريق المال ، ولا بملكية الدولة مع قطعان العمال التى تسوقهم إلى العمل سوقاً .

..ولذا لا يقال : إن الاسلام يؤيد المباشرة الحرة فى المال . أى يؤيد الملكية الفردية التى هى أساس النظام الرأسمالى ، طالما هو يبيح ملكية الأفراد للمال أو لاستخلافهم عليه . لأن معنى الاستخلاف على المال يفرق بين الملكية الفردية فى الاسلام ، والملكية الفردية الأخرى فى النظام الرأسمالى. فالاستخلاف طريق مرسوم لمنع الطغيان عن طريق ملكية المال ، ولتأدية وظيفة المال الاجتماعية عن طريق الزكاة . فالمستخلف ملتزم بالسير فى تحقيق العدالة الاجتماعية طبقاً لوصايا الاسلام . وأولى هذه الوصايا : تحقيق المنفعة العامة للمال للمالك ولغير المالك على السواء : « **فهم فيه سواء** » فضلا عن أن انفاقه لا يجوز أن يكون فى عبث أو مفسدة ، وأن انماءه لا يجوز أن يكون عن طريق استغلال صاحب الحاجة إليه . وتحريم أكل أموال الناس بالباطل يعم كل ضروب العبث والفساد ،بينما تحريم الربا فى المعاملات المالية يشمل صور الاستغلال لحاجة صاحب الحاجة . ويدخل فى هذه الصور : استغلال العامل فى أجره وفى رعايته الاجتماعية والصحية ، لأنه صاحب حاجة إلى الأجر على العمل ، ورد القرآن على سؤال من يسأل عن المقدار الذى يجوز لمالك المال أن ينفقه فى قوله الله تعالى « **ويسالونك ماذا ينفقون قل العفو** » (٨) يفيد أن المالك أو المستخلف على المال يأخذ من المال حاجته ، ويعطى العفو أو الزائد عن هذه الحاجة فى وجوه الانفاق المشروع ، تحقيقاً للمنفعة العامة للمال .

---

(٨) البقرة : ٢١٩

ومع كون المجتمع الإسلامى مجتمع ملاك وعمال معاً فإنه ليس مجتمعاً طبقياً . لأن الملاك والعمال إخوة فى الإيمان ومتساوون فى الاعتبار البشرى . وإخوة بعضهم لبعض تحول لذلك دون قيام نزاع بينهم ، فضلا عما يسمى بالصراع الطبقى . ومساواة بعضهم لبعض فى الاعتبار البشرى من شأنها أن تمنع سخرية بعضهم من بعض واستخفاف القوى بالضعيف . وقد جاء الأمران فى قول الله تعالى : **« انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »** (٩) .. فإذا تحول النزاع بين طائفتين من المؤمنين ــ ملاك وعمال .. حاكم ومحكومين ــ إلى قتال بينهما ، وجب تدخل المؤمنين بالقوة لإنهاء القتال ، ثم معالجة الأمر بينهما بعد ذلك على أساس من العدل : **« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين »** (١٠) ..

وهكذا : هناك ثلاثة نظم فى ملكية المال وانمائه ، وإنفاقه ، وبالتالى هناك ثلاثة أنواع من المجتمعات :

أولا : الملكية الفردية للمال ، والحرية فى انمائه وانفاقه . ومجتمع هذا النظام هو المجتمع الرأسمالى ، أو مجتمع الملاك .

ثانياً : ملكية الدولة للمال ، وممارسة الدولة السيادة على الأفراد فى تحديد العمل والأجور . ومجتمع هذا النظام هو مجتمع العمال بدون مالكين للمال .

ثالثاً : الملكية الفردية للمال ، والالتزام فى إنفاقه وإنمائه بحدود الاستخلاف فيه وهذه الحدود تحول دون الطغيان به . ومجتمع هذا النظام هو مجتمع الملاك والعمال معاً ، أو المجتمع الإسلامى .

---

(٩) الحجرات : ١٠ ، ١١ (١٠) الحجرات : ٩

وهكذا : دخول الاستخلاف فى الملكية الفردية للمال هو الفيصل فى تميز المجتمع الإسلامى عن المجتمعين الآخرين : الرأسمالى .. والعمالى .. لأنه على أساس من الاستخلاف فى المال لا توصل الملكية الفردية إلى الصراع الطبقى .. وبالتالى إلى التحول إلى المجتمع العمالى . فالاستخلاف كتفويض من الله يضع المالك للمال أمام مجموعة من القيود أو المبادىء لا يحيد عنها ، يضعه :

ـ أمام المنفعة العامة للمال الخاص ، فيشرك أصحاب الحاجة معه.

ـ وأمام عدم الاستغلال لصاحب الحاجة عند التنمية ، فيمتنع عن الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وبالأخص أكل أموال الضعفاء .

ـ وأمام عدم العبث والتقيد فى الإنفاق على الذات أو على الآخرين ممن يجب الإنفاق عليهم .

وبهذه القيود أو المبادىء لا تكون الملكية الشخصية طريقاً إلى الطغيان بالمال والتدخل فى شئون الحكم وتوجيه سياسة المجتمع . بل تبقى طريق المباشرة النشطة للمال .

وبهذه القيود أو المبادىء كذلك لا تكون الملكية الشخصية منفذاً إلى تكديس الثروة ، ولا إلى الشح فى إنفاقها ، فمانع الزكاة مرتد ، ويقاتل على ردته ، وتقسيم الإرث ضرورة اجتماعية واقتصادية .

وبهذه القيود أو المبادىء أيضاً كما تكون للمال حرمة عدم الاعتداء عليه باتلافه ، أو تخريبه ، أو الامتناع عن العمل فى إنمائه .. تكون للعامل فيه حرمة الحق فى الأجر المجزى ، وفى ضروب الرعايات المختلفة . كإنسان يتساوى فى الاعتبار البشرى مع المالك سواء بسواء .

* * *

● **المجتمع الاسلامى هو مجتمع الروابط الانسانية :**

طلب نوح عليه السلام من ربه أن يغفر لابنه وأن يشمله برحمته ، وعلل طلبه هـذا من أهله ، فقال: « **ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان**

وعدك الحق وانت احكم الحاكمين » (١١) .. ولكن كان جواب الله له هو قوله تعالى : « **قال يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح** » (١٢) . وفى هذا الجواب ينكر الله على نوح أن يكون ابنه فى عداد أهل نوح وجماعته ، إذ جماعته أو مجتمعه على الحقيقة يتكون من المؤمنين به وبرسالته وليس من أقربائه وذوى رحمه فى الدم والعلاقة الأسرية .

فالعلاقة فى مجتمع المؤمنين ليست علاقة الدم والقرابة ، وليست علاقة القبيلة والأسرة إذن ، وإنما هى علاقة الإيمان بالله والعمل الصالح . وبهذا يوجه الله رسوله نوحا إلى أن علاقة القرابة لا توضع موضع الاعتبار إطلاقاً عند تقييم الروابط التى يرتبط بها الأفراد فيما بينهم فى مجتمع الرسالة ، وأنه ينبغى للرسول ــ ولقائد مجتمع المؤمنين بعده ــ أن يهتم بأفراد المجتمع على أساس الإيمان بينهم ، وليس على أساس القرابة وصلة الدم الذى يجرى فى عروقهم .

وفى رسالة القرآن للرسول محمد عليه السلام طلب منه ومن المؤمنين به أن يلجأوا إلى هداية الله ويلوذوا بها دائماً فى ترابط بعضهم ببعض وأن يعتصموا بها عندما ينشدون القوة والتآخى والمحبة فيما بينهم . فيقول : « **واعتصموا بحبل الله جميعاً** (وحبل الله هو هدايته فى كتابه) **ولا تفرقوا** ، (أى لا تتوزعوا على أساس القبيلة والأسرة) **واذكروا نعمة الله عليكم** (الآن بعد الإيمان) **اذ كنتم اعداء** (بسبب القبلية التى كانت شائعة بينكم) **فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » (١٣) ..

فحبل الله أو هدايته تنطوى على مبادىء توجيه الرسالة الإلهية للإنسان . وهى مبادىء تدفعه إلى أن يكون ذا مستوى فاضل فى الإنسانية .. تحمل المؤمن بالله على أن يتحول من أنانية يعيش تحت تأثيرها وينكر غيره

---

(١١) هود : ٤٥ (١٢) هود : ٤٦

(١٣) آل عمران : ١٠٣

فى الوجود معه إلى أن يحس غيره كما يحس ذاته ويعيش لغيره كما يعيش لذاته ، أى تحمله على أن يكون إنسانا فى سلوكه وفى معاملته للآخرين .

والدعوة إلى الاعتصام بهداية الله هى دعوته إلى النجاة من السقوط فى الفرقة ، وهى فرقة الخصومة بسبب الأنانية الغالبة . والسقوط فى الفرقة معناه السقوط فى الضعف ، السقوط فى الشحناء والبغضاء ، السقوط فى القتال والحروب .

وإذا ذكرت الأنانية ذكر ما يقوم عليها من ترابط الأسرة ، والقبيلة ، والفرقة . وإذا ذكرت اللاأنانية أو هداية الله وحبله ذكرت الإنسانية وقيمها العليا التى تتمثل فى المحبة والأخوة وروح التواد والمعاونة .

والرسالة الإلهية إذن منذ أن عرفت على عهد أقدم الرسل وهو نوح إلى عهد رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام : تعنى بالروابط الإنسانية وحدها وتوجه المؤمن نحو ادراكها والتحول فى الواقع إلى مستواها دون غيرها .

والدعوة إلى المجتمع الإسلامى دعوة فى واقع الأمر إلى المجتمع الإنسانى الذى ينبذ صفات الجاهلية المادية ويتحلى بالصفات الإنسانية .. هى دعوة إلى مجتمع يعطى أفراده من فائض إنسانيتهم إلى أصحاب الحاجة معهم فى مجتمعهم بدلا من مجتمع يستغل أفراده حاجة بعضهم بعضاً إلى البقاء على قيد الحياة .. هى دعوة إلى مجتمع يقول الله فى شأن أفراده : **« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »** (١٤) .. بدلا من ذلك المجتمع الذى بقى عند حد المادية والأنانية وكفر بالقيم الإنسانية وجاء وصفه فى قوله تعالى : **« واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين »** (١٥) ..

ليس هناك مجتمع دينى ، إنما هناك مجتمع إنسانى ، وليس هناك مجتمع غير دينى ، وإنما مجتمع آنانى أو مادى .

* * *

(١٤) الانسان : ٨ ، ٩ (١٥) يس : ٤٧

● **المساواة فى الاعتبار البشرى مبدأ أساسى :**

توفير الاعتبار البشرى لكل إنسان من الآخرين معه فى مجتمعه : قضية أساسية فى الإسلام . فالإسلام لا يعرف تصنيفاً لطبقات فى المجتمع على أساس من الغنى والفقر ، أو الجاه والشرف ، أو نوع العمل الذى يباشره الإنسان . وإنما إذا ميز إنساناً عن إنسان فميزته عند الله بالمستوى الإنسانى فيه . على معنى أن صاحب المستوى الرفيع فى التهذيب والسلوك ، وأداء الواجب ، والمشاركة للآخرين فى عواطفهم ومعاوناتهم على سد حاجاتهم أقرب فى القبول عند الله ، من إنسان آخر هو أدنى منه فى هذا المستوى : **« ان اكرمكم عند الله اتقاكم »** (١٦) .. ولكن فى المجتمع يجب أن يتوافر الاعتبار البشرى للأفراد جميعاً على السواء . فلا يسخر فرد من فرد ، ولا ينتقص إنسان إنسانا آخر ، ولا يدعو إنسان إنسانا بما يكره أن يناديه به أحد . ولذا ينهى القرآن فى سورة الحجرات عن السخرية .. وعن اللمز وهو الانتقاص من قدر الإنسان .. وعن التنابز بالألقاب التى تنطوى على الاحتقار ، فى قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا انفسكم (أى ينتقص أحدكم الآخر) **ولا تنابزوا بالالقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ،** (أى أن مباشرة السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب تكاد تكون خروجاً عن الإيمان . وليس هناك أقبح من العودة إلى الجاهلية والكفر ، بعد الإيمان) **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »** (١٧) ..

ويقول الله سبحانه هذه الآية عقب قوله : **« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »** (١٨) .. مما يشير إلى أنه قد يكون سبب القتال بين طائفتين من المؤمنين هو عدم توفر الاحترام بينهما فى رعاية الحقوق المماثلة لكل منهما .. ثم قوله بعد ذلك :

« انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (١٩)

---

(١٦) الحجرات : ١٣
(١٧) الحجرات : ١١
(١٨) الحجرات : ٩
(١٩) الحجرات : ١٠

فالمجال مجال تصفية النفوس مما قد يكدر العلاقة بينها . وليس هنـاك ما يكدر النفس ويشحنها بالحقد بعضها ضد بعض ، من أن ينكر على بعضها الحق فى الحياة والكرامة الإنسانية ، بناء على تفرقة فى الاعتبار البشرى .

وفى مجال تصفية النفوس عرض القرآن للظاهرة التى قد تحدث ، وهى ظاهرة القتال بعد النزاع بين مجموعتين من الأفراد فى الأمة . واقتراح علاجها على أسـاس من العـدل المجـرد : « **فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين** » .. ثم بين الدافع لوجوب المصالحة على أسـاس العدل المجرد ، وهو أن العلاقة بين المجموعتين المتقاتلتين : علاقة إخوة فى الإيمان ، وإخوة فى الإنسانية : « **انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم** » . ثم حرم ما من شأنه أن يكون السبب فى المخاصمة والتقاتل بين فريقين من المؤمنين ، وهو أن تسخر مجموعة من المؤمنين بمجموعة أخرى من بينهم ، أن تؤذيها إيذاءاً نفسيا بالانتقاص من قيمتها أو بدعوتها وندائها بما لا تحب أن تنادى به .

.. والمساواة فى الاعتبار البشرى فى نظر الإسلام إذن منهج فى الحياة بين المؤمنين جميعاً :

١ ــ لضمان الحقـوق المماثلة لجميع الأفراد ، فى الحياة والكـرامة الإنسانية .

٢ ــ وسلوك بعيد كل البعد عن السخرية والانتقاص فى القيمة لأى فرد فى الأمة .

٣ ــ وإسراع فى تصفية النفوس عند التنازع والذهاب فيه إلى القتال ، على أساس من العدل المجرد ورد الحقوق المماثلة لمن اعتدى عليه فيهـا .

وهكذا : لا يعرف الإسلام طبقية ، ولا صراعا بين طبقات ، ولا يعـرف عقداً كأساس لحل مشكل ، إنما يعرف الأخوة والمساواة فى الاعتبار والمماثلة بين الحقوق والواجبات .

* * *

● **رسالة الدين لا تعارض متعة الدنيا :**

نقرأ نداء نوح إلى ربه فى قوله تعالى :

« **قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهاراً . فلم يزدهم دعائى الا فراراً . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا . ثم انى دعوتهم جهاراً . ثم انى اعلنت لهم واسررت لهم اسراراً . فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا** » (٢٠) .. نقرأ هذا النداء فنرى أن نوحا عليه السلام وعد قومه إن هم استجابوا لدعوته وآمنوا بالله وحده وطرحوا الشرك والوثنية المادية ــ بأن يغفر الله لهم ماديتهم وجاهليتهم .. وأن يرسل عليهم من السماء مطرا يحول أراضيهم إلى جنات ، ويشق فيها أنهارا وقنوات . وبذلك تزدهر ثروتهم الزراعية والحيوانية ، كما يكثر عددهم وينشأون على القوة والعزة فيكون لهم المدد المستمر من الأموال والشبان .

ونقرأ قوله فى سورة الأعراف ــ وهى السورة التى تقص تاريخ الرسالة الإلهية والرسل فى العهود والأجيال المختلفة :

« **ولو ان اهل القرى** (وأهل القرى هم المجتمعات السابقة التى آثرت البقاء على الجاهلية والشرك) **آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض** (وبركات السماء هى ماء الأمطار .. وبركات الأرض هى ما يخرج منها من زراعة ومعادن ومما ينشأ على ذلك من ثروة حيوانية وقوة بشرية فى كمها وكيفها) . **ولكن كذبوا** (أى ولكن أهل هذه المجتمعات المادية السابقة آثروا البقاء على التكذيب لرسالة الله ، والحياة فى ظل الوثنية) **فاخذناهم بما كانوا يكسبون** » (٢١) .. (ومن أجل ذلك كان جزاؤهم هو الهلاك والاستئصال . وهو جزاء استحقوه هم بسبب موقفهم . وهو موقف المعارضة من رسالة الله والكفر بما جاء به الرسول) .

ونتجاوز مجتمع نوح ومجتمعات الرسل بعده إلى مجتمع أهل الكتاب فى بنى إسرائيل فنجد قول الله تعالى فى مواجهتهم :

---

(٢٠) نوح : ٥ ــ ١٢ (٢١) الاعراف : ٩٦

« **ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم** (أى لو أن أهل الكتاب طبقوا ما جاء لهم فى رسالة التوراة ، ثم ما جاء بعدها فى رسالة الإنجيل ، وكذلك ما أنزل إليهم من ربهم من كتاب الله وهو القرآن ــ وما جاء فى هذه الرسالات فى عهودها المختلفة لا يخرج عن مقاومة المادية وطرح الشرك والوثنية وحمل الإنسان على أن يسلك المسلك الإنسانى فى حياته ــ لو أنهم طبقوا هذه الرسالات حقاً فلم يحرفوا البعض وينكروا البعض الآخر) **لأكلوا من فوقهم** (وهو ما تجود به أمطار السماء) **ومن تحت ارجلهم** ، (وهو ما تخرجه الأرض التى يعيشون عليها) ، **منهم امة مقتصدة** ، (أى لكن منهم فقط مجموعة معتدلة وعادلة) **وكثير منهم ساء ما يعملون** » (٢٢) .. (وأما الكثرة الغالبة فهى تحرف وتنكر . ومن هنا لم يتم وعد الله لهم) .

فى كل ما قرأناه لم تنكر رسالة الله إذن الاستمتاع بمتع الدنيا . بل العكس ــ كما رأينا ــ تعد بمتع هذه الحياة للإنسان جزاء لإيمانه ، مما يدل على حلها ويدل فى الوقت نفسه على أن السعى لتحصيلها مطلوب من الإنسان فى دنياه .

والشىء الذى تحذر منه الرسالة الإلهية هو الإسراف فى الاستمتاع بها فقط : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين** » (٢٣) ..

* * *

● **دين الله يسوى بين قيمة العمل واداء العبادة :**

الإسلام لا يعرف الانقطاع إلى العبادة . وإنما المؤمن برسالته . كما يجب أن يؤدى العبادة من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، تقربا إلى الله ، يجب عليه أن يسعى فى الأرض ابتغاء فضل الله وتحصيل رزقه . وقد كان عثمان ابن مظعون ــ وهو أخ من الرضاع للرسول عليه الصلاة والسلام ــ قد انقطع للعبادة فبعث إليه الرسول ، فجاءه ، فسأله : أرغبت يا عثمان عن سنتى ؟

---

(٢٢) المائدة : ٦٦ (٢٣) الأعراف : ٣١

قال : لا والله يا رسـول الله ، ولكن سنتك أطلب ؟ قال : « فإنى أنام ، وأصلى ، وأصوم ، وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا .. وإن لنفسك عليك حقا . فصم ، وأفطر ، وصل ، ونم » .

فهذا الحديث يطلب من المؤمن ألا يتخلى ، من أجـل العبـادة ، عن الواجبات التى يجب أن يؤديها نحو نفسه وأهله ، ومن لهم حق عليه . إذ العبادة فى نظر الإسلام وإن كانت الغاية من خلق الجـن ، والإنس .. من خلق الملائكة ، والناس جميعاً على السـواء ، لما جاء فى قول الله تعـالى : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبـدون** » (٢٤) .. إلا أنها من جانب آخـر عامل يعين العابد على أن يحقق فى ذاته خصائص الإنسـان . وأهم هـذه الخصائص : السعى فى سبيل الرزق . وإذ يقول الله تعالى :

« **يا ايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** » (٢٥) .. يوضح أن سعى الإنسان فى سبيل الرزق يقترن فى الاعتبار عند الله بالسعى إلى أداء صلاة الجمعة عندما يؤذن المؤذن لها .

ويوضح من جانب آخر أن الغاية من خلق الموجودات التى تختبر فى طاعة الله ، سواء منها المعهود الذى يعرف ويرى ، وغير المعهود الذى لا يعـرف ولا يـرى ، وهى العبـادة ، على نحـو ما يعبـر قـوله تعـالى : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » .. يراد منها أن خلق الأجيـال المتتابعة من البشر على الخصوص فى هذه الدنيا بعد آدم وحواء ، يستهدف منه الابتلاء فى طاعة الله والخشية منه ، إثر تبليغ الرسـول لرسـالة الله . ويستمر هذا الابتلاء إلى يوم أن تقوم الساعة . وهذا الابتلاء فى طاعة الله لا يعنى تواكل الإنسان وقعوده عن السعى فى سبيل فضل الله ورزقه . لأن الله سبحانه عنـدما تكفل بالرزق لبعض المخلوقات ، فى قـوله تعـالى : « **وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها** » (٢٦) . ربط تكفله بالرزق بحركة

---

(٢٤) الذاريات : ٥٦ (٢٥) الجمعة : ٩ ، ١٠

(٢٦) هود : ٦

المخلوق فى سعيه نحو تحصيله ، إذ يعبر بقوله : « **وما من دابة فى الأرض** » .. أى ما من مخلوق من شأن طبيعته الحركة : يتكفل الله له بالرزق ، عندما يتحرك فى الأرض ويدب عليها ، ويسعى فيها .

والإسلام إذن لا يعرف التواكل ، وإن كان يطلب التوكل على الله والاعتماد عليه عندما يعزم ويصمم على التنفيذ والعمل .

والإسلام أيضاً لا يعرف القدرية وهى السلبية وترقب ما يأتى به القدر ، وإن كان يطلب الإيمان بالقضاء والقدر ، دفعاً إلى عدم التهيب فى الحياة . فالإيمان بالقضاء والقدر ليسير على الإنسان المؤمن : أن يجتاز المشاق والصعاب بروح قوية لا تعرف الهزيمة والاستسلام ، طالما أن العمر واحد ، وأن أجل الإنسان مكتوب ، وطالما أن ما هو مقدر ليس منه مهرب .

والإيمان بالقضاء والقدر لا يدعو إذن إلى السلبية فى الحياة . بل على العكس يدعو إلى الإيجابية والعمل . والذين يروجون عن الإسلام ، أنه دين تواكلى ، أو دين قدرى لا يستطيعون : أن يفهموا قول الله تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** » .. أى إذا انتهت صلاة الجمعة فانتشروا فى بقاع الأرض وفى سبلها ، قصداً لتحصيل رزق الله ، وهو ماله ، ونعمته ، وفضله ، فى التجارة ، أو المهنة أو الحرفة ، أو الزراعة والصناعة . ولا يستطيعون أن يفهموا قوله : « **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** » (٢٧) .. فيرخص بالسعى فى سبيل الرزق ، أثناء أداء عبادة الحج .

إن قيمة العمل لا تقل شأناً عن عبادة الله . ذلك من مبادىء الله فى المجتمعات البشرية .

* * *

● **دين الله يمقت القول الكثير والعمل القليل :**

من الناس ــ إذا كانوا يحملون طبيعة النفاق ــ يتحدثون كثيراً ، ولا يفعلون إلا القليل . ومن كثرة ما يقولون يخدعون غيرهم . ومن قلة

---

(٢٧) البقرة : ١٩٨

ما يفعلون يحرجون هؤلاء أشد الحرج . وهم ليسوا مكلفين من أحد ولا من أنفسهم أن يتحدثوا عما لا يستطيعون أن يأتوا به . والعاقل يدرك : أنه الأولى به إذا كان لا يستطيع أن يفعل ، أو يشك فى أن يفعل ، ألا يذكر شيئاً وألا يشير من قريب أو بعيد إلى مالا يستطيعه .

والقرآن لكى يوضح : أن القول الكثير .. والعمل القليل ، أو أن الوعد بأمر .. ثم التخلى عنه ، له ضرر على المتحدث نفسه ، وضرر آخر على من يوجه الحديث إليهم ، ومن ثم فهو ممقوت عند الله ، جاء قول الله تعالى : « **يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** » (٢٨) .. وقد قيل إن هذه الآية نزلت فى شأن من وعدوا بالثبات فى القتال قبل موقعة « أحد » وعندما جاءت الموقعة ولاحت بوادر الهزيمة على الأعداء تخلوا عن مكانهم فى الميدان ، جرياً وراء جمع الغنائم ، ثم كانت الهزيمة من أجل ذلك للمؤمنين . ويؤيد هذا الرأى قول القرآن بعد ذلك : « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كانهم بنيان مرصوص** » (٢٩) ..أى يريد من المقاتلين المؤمنين حقاً : أن يثبتوا فى القتال حتى لا تكون هناك ثغرة فى صفوفهم ، تخل بنظامهم ووضعهم فى القتال فى مواجهة أعدائهم كما وقع فى « أحد » .

وأياً كان السبب فى نزول الآية فإنها تنطوى على مبدأ عام أو ظاهرة إنسانية عامة خطيرة ، تشيع وتتكرر ، إذا لم يع الإنسان عاقبتها على المجتمع وعلى الذات كذلك ، ويأخذ نفسه بالدقة والتحرى فى القول . وهو مبدأ الميل إلى الحديث والاسترسال فى الوعد ، مع قلة الإنجاز أو مع عدمه .

وخطورة هذا الميل إلى التوسع فى الحديث والقول دون فعل ، على المجتمع ، وخصوصاً فى وقت الأزمات : أن الناس يترقبون من لحظة إلى أخرى الوفاء بما قيل لهم ، بعد أن تطلعوا إليه وعلقوا عليه الأمل فى حل مشكلة أو مشكلات لهم . ثم تمضى اللحظات وتتبخر الأقوال قولا بعد آخر ، دون أن يكون لها مدلول فى حياتهم .

---

(٢٨) الصف : ٢ ، ٣ (٢٩) الصف : ٤

ومن حكمة السياسة والقيادة فى التوجيه إبعاد جانب المبالغة فى الوصف أو فى القول أو فى الوعـد ، والتزام الحيطة فى الأحاديث عن الشـئون الجادة التى تتصل بحياة الناس ومستقبلهم .

أما خطورة هذه الظاهرة على الذات فإن الخلف فى الوعد ، وعـدم الإنجاز لما قيل وتردد فى الحديث يعود بأثر سلبى ينسب إليها . وهو الوصف بالكذب ، وبالنفاق أيضاً . وقد حذر الله رسوله الكريم من أن يدخل عليه وضـع بعض المنـافقين . وهم الذين يخـدعون النـاس بأقوالهـم ووعودهم ، وهم فى حقيقـة أمرهم أعـداء ألداء لهم ، إذ يقـول له : **« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام »** (٣٠) ..

وقد أوصى الله بنى إسرائيل ضمن ما أوصـاهم : بأن يقولوا للنـاس حسناً . على معنى أن تكون لديهم دقة فى الحديث ، وحيطة فى الوعود ، وعدم الإسراف فى الأمل . ولم يتبعوا واحداً مما أوصـاهم به فى قـوله : **« وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون »** (٣١) .. ولذا كان جزاؤهم الخزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب .

* * *

● **اتباع دين الله لا يحمل المتبع له على ان يمتن على أحد :**

كثير من الذين يعلنون إيمانهم باتجاه حاكم فى حكمه ، أو بدعـوة داع فى دعوته ، يبتغون من إعلانهم الإيمان باتجاه الحاكم : أن تكون لهم حظوة عند الحاكم أو الداعى ، ينالون عن طريقها منفعة مادية أو أدبية . لأن المؤمن عن اقتناع باتجاه معين فى الحياة ، أو بدعوة معينة تحدد مذهباً إصلاحيـاً فيها ، يكفيه أن يعيش مع ذات الاتجاه أو ذات الدعوة ، دون أن يحـاول الاتصال بصاحب الاتجاه أو بصاحب الدعوة ، فضلا عن أن يمتن عليـه بأنه من الأتباع والمؤمنين به .

---

(٣٠) البقرة : ٢٠٤ (٣١) البقرة : ٨٣

وصاحب الاتجاه فى الحكم ، أو صاحب الدعوة الإصلاحية عليه أن يتعلم ــ كمبدأ من مبادىء السياسة التى ترسم له النجاح فيما يتجه أو يدعو إليه ــ أن المعلنين عن إيمانهم والمتقربين به إليه فضلا عن الممتنين به عليه : هم أخف الأتباع وزناً بينهم ، وأقلهم تحملا وصبراً فى طريقه ، وأكثرهم حديثاً وقولا عنه دون أن يكون لعملهم فى سبيله ما يدفع عنه عداوة العدو أو تربصه به .

إن الاقتناع الذاتى باتجاه حاكم فى الحكم ، أو بدعوة داع إلى الإصلاح يخلق للمقتنع متعة يحس بنشوتها ، بحيث لا تترك عنده فراغاً نفسياً يحاول أن يشغله بالحصول على حظوة الحاكم أو الداعى ، أو بالتعبير عن منة عليه بالمشاركة فى الإيمان . ولكن الاحتراف بالإيمان هو الذى يدفع إلى الحظوة ليحصل عليها ، والمنة ليعبر عنها .

والمحترف بالإيمان أسوأ المتبعين له : فى سلوكه ، وفيما يحترف به . أما فى سلوكه فلأنه اختار أن تكون القيم التى يقوم عليها اتجاه الحكم وتتكون منها دعوة الإصلاح : سلعة يؤدى الاتجار بها إلى كسب مادى ومنفعة مادية . وأما فيما يحترف به فالاتجار بالإيمان بالمبدأ ليس خداعاً ولا مهانة فقط للمبادىء . وإنما ينطوى على تضليل للكثرة التى تطيع فى اندفاع وفى غير وعى ، من يبدو فى صورة المجرد عن الهوى فى نصحه وفى الحديث عما يؤمن به .

والرسول محمد عليه الصلاة والسلام كحاكم وكصاحب دعوة اجتماعية إصلاحية فى رسالة الله ، قد رسم له القرآن الكريم إطار سياسته داخل المجتمع الإسلامى ، وفى علاقته بالآخرين خارجه فيضع أمامه صورة من الصور التى تتكرر مع كل دعوة إصلاحية ، وهى محاولة الانتهازيين الكسب المادى عن طريق عرض الإيمان وإعلانه . فيقول له : « **يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين** » (٣٢) ..

.. إن هؤلاء الذين يجيئون إليك ويمتنون عليك بأنهم أسلموا لا تقبل

---

(٣٢) الحجرات : ١٧

منهم منتهم ، لأن الإيمان بالدعوة فى ذاته هو منفعة ذاتية لمن آمن بها . وهى أن المؤمن يتقى بإيمانه انحراف السلوك وأخطار المعاملات مع الآخرين .

فإذا كان هناك من يمتن على غيره فهو الله سبحانه هو الذى يمتن عليهم لأنه هدى هؤلاء .. إلى الإيمان ، إن كانوا صادقين فيما أعلنوه وفيما ادعوه من قبولهم الإسلام دينا لهم .

وهكذا أولا : لا ينبغى أن يكون الإيمان بالدعوة الاجتماعية الإصلاحية : سلعة يحترف بها انتهازى ، عندما يدعو إليها .

ثانيا : إن الإيمان الصادق بمثل هذه الدعوة يعبر عن نفسه فى شعور المؤمن بأنه الممتن بتوفيق الله إياه إلى هذا الإيمان ، لأنه المستفيد منه .

ثالثاً : بهذا التحديد يبتعد النفاق عن مجال الإيمان أو يقل . والنفاق هو المرض الذى يذهب بالإيمان عندما يتمكن منه .

* * *

● **المشاركة فى الايمان هى وحدها التى تؤمن الثقة :**

هناك علاقة القربى فى السياسة . وهى علاقة تقوم على المصلحة الذاتية وعلى المنفعية . أى هى علاقة تنشأ بين مجموعة من الأفراد يتبنون اتجاها فى سياسة المجتمع ، على أن يكون رائدهم أولا تحقيق المصلحة الذاتية ، من وراء وجودهم فىالقيادة السياسية . والولاء فى هذه العلاقة يخدم منفعة شخصية ، قبل أن يخدم المصلحة العامة . والثقة فى هذا الولاء ثقة مرهونة بدوام المنفعة وبحجمها . فهى ثقة مؤقتة ومعرضة للتحول من طرف إلى نقيضه ، طالما تحكمها المنفعية .

وهناك علاقة القرابة فى الدم . وهى علاقة تقوم على العصبية . وشأنها شأن العلاقة السابقة فيما تستهدفه ، وفى طبيعة توقيتها بالمنفعة المتداولة . فالأقوياء فى الدم لا يتكتلون ، بعضهم مع بعض ، إلا إذا كانت هناك مصلحة واحدة تجمعهم . فإن كانت لهم مصالح متعددة فهم ينقسمون فيما بينهم حسب تعددها وحسب التعارض القائم بينها . ولذلك كانت الثقة فى ولاء الأقوياء ثقة موقوتة .

والنوع الثالث من العلاقات هو النوع الناشىء عن الإيمان بالله . على معنى أن تكون هناك مجموعة من الأفراد تقوم العلاقة بينهم على إيمـــان بالله وحده . وهذا النوع من العلاقات هو أفضلها ، وأكثرها استقراراً ، وأدخلها فى الثقة المتبادلة . وبالتالى أدومها . لأن الإيمان بالله يطلب التضحية من المؤمن : بالمال .. أو بالعصبية .. أو بالقوة . فهو على العكس من علاقة القربى فى السياسة ، أو القرابة فى الدم ، التى تستهدف كل منهما المنفعـة الخاصة .

ولذا كان فى تكوين المجتمع الإسلامى لأول مرة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ــ وكذلك فى كل وقت ــ ينصح القرآن المؤمنين بأن يولوا الرعاية لقرابة الإيمان ، ويؤثروها على علاقة الدم . بل يحذر من إيثار هذه على تلك . لأن هذا الإيثار لا يخدم نمو المجتمع ولا استقراره فى سـبيل أهدافه العليا . يقول الله تعـالى : **« يا ايهـا الذين آمنوا لا تتخـذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان اسـتحبوا الكفـر على الايمـان ،** (أى لا تؤثـروا بصداقتكم وعلاقة الولاء لديكم : أقاربكم من الآباء والإخوة ، لأنهم أقارب لكم فقط ، قبل أن يشاركوكم الإيمان بالله وحده . فإذا لم يشاركوكم الإيمان بالله ومددتم إليهم مع ذلك علاقة الصداقة والإخلاص فقد أسأتم إلى أنفسكم) **ومن يتولهم منـكم فاولئك هم الظالمون »** (٣٢) .. والإساءة إلى أنفسـكم تأتى من اختلافكم معهم فى الهدف ، وفى السبيل إليه . فهدفكم أنتم تحقيق قيم عليا فى حياتكم الإنسانية وهى قيم الهداية الإلهية . بينما هدفهم هم تحصيل دنيا ومنافع أنانية . وسبيلكم هو سبيل الإنسان العادل المحسن . بينما سبيلهم هم سبيل الطاغى والمعتدى .

. . والمبدأ الذى يقرره القرآن هنا فى شأن تماسك المجتمع وحسن قيادته هو : أنه يجب أن تؤثر القيادة فيه بعلاقاتها الطيبة وبثقتها فى مباشرة الأمور . أولئـكم الذين يعطون من أنفسـهم ومما يملكون من طاقات ، أكثر مما ينتظرون من مصالح فردية .. أن تؤثرهم على من يمتون لهم بصلات النسب

---

(٣٢) التوبة : ٢٣

والقرابة ، وليس لهم إلا هذه الصلات ، مع ما قد تنطوى عليه نفوسهم من عدم إيمان بأهداف المجتمع .

ومخالفة هذا المبدأ فى قيادة المجتمع وتوجيهه يعود بالضرر على أهدافه وعلى تحقيق الاستقرار فيه .

* * *

● **الثانى فى قبول الأنباء من الأعداء سمة للمؤمن :**

إن الحرب النفسية التى يثيرها أعداء أى مجتمع فى وقتنا المعاصر ليست جديدة فى علاقات المجتمعات بعضها ببعض . وربما يكون الجديد فيها هو الأسلوب الذى تخرج فيه . ولكنها فى واقع أمرها : مناورة من العدو يستهدف بها إثارة القلق أو إحداث ارتباك ما فى شئون عدوه فى مجتمع آخر .

وقول القرآن الكريم : « **يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** » (٣٤) .. ينبه إلى الموقف الذى يجب أن يتخذه المؤمن عندما يحمل عدوهم ــ وهو الفاسق هنا ــ إليهم نبأ يثير عدم الطمأنينة بينهم . وهو موقف التريث والاختبار لما ينقل إليهم منه . كما ينبه هذا القول القرآنى إلى أن الحرب النفسية من السنن الاجتماعية التى تلازم الطبائع البشرية . كحرب القتال فى الميدان سواء بسواء . وكلتاهما من الأمور الضرورية التى تقع فى علاقات المجتمعات .

فعلى عهد الرسول عليه السلام قد أشاع أعداء المجتمع الإسلامى فى فترة من الفترات بين المؤمنين أنباء من شأنها أن تثير الاضطراب أو على الأقل تثير عدم الطمأنينة بينهم . كما يحكى القرآن فى قول الله تعالى فى وصف المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم ولم ينزعجوا للشائعات التى يثيرها أعداؤهم : « **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح ،** (والقرح هو الجروح وآثار الآلام فى القتال) **للذين احسنوا منهم واتقوا**

---

(٣٤) الحجرات : ٦

أجر عظيم . الذين قال لهم الناس (وهم المنافقون بينهم وهم أعداء فى واقع أمرهم) **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** (والمراد بالناس الثانية : الأعداء الظاهرون فى عداوتهم) **فزادهم** (أى هذا القول) **ايمانا** (أى على عكس ما استهدف المروجون) **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » (٣٥) ..

فهنا أشاع المنافقون بين المؤمنين : أن أعداءهم من المشركين الماديين أعدوا عدتهم لقتالهم ، وجمعوا المحاربين بعتادهم وزادهم لنزالهم ، مناورة من هؤلاء الأعداء ليحدثوا الفزع والخوف بين المؤمنين ، وبالتالى ليرهبوا مواجهة أعدائهم ، ويؤثروا الاستسلام لهم **على ما يجب من لقائهم فى ميدان** القتال ، قبل اللقاء معهم فى مجال الحجة ودعوتهم إلى الهداية الإلهية .

وما جرى على عهد الرسول عليه السلام من شائعات الخوف والإرهاب عن طريق أعداء المؤمنين يجرى فى كل عهد ووقت بعد ذلك حتى يومنا هذا ، وجرى بين مجتمعاتنا الإسلامية والعربية فى الوقت الحاضر فى الشرق الأدنى فى السبعينات وما بعدها .

وموقف التأنى والتريث الذى يطلبه القرآن هنا مرهون بأن يكون صاحب النبأ أو المروج له من الفاسقين : « **ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** » والفاسق هو الفاجر فى عدائه لقيم المجتمع الإسلامى ومبادئه .. هو الخارج خروجا واضحا فيمايعتقد ، ضد هذا المجتمع وإن نافق وتخفى وراء الصداقة ، أو وراء إعلان الدعم والمساندة لمجتمع المسلمين .

وموقف التأنى الذى يطلبه القرآن إزاء أنباء الفاسقين ليس فقط للحفاظ على هدوء المجتمع وإعطاء الفرصة للكشف عن الأهداف الحقيقية وراء هذه الأنباء . وإنما كذلك لتجنب رد فعل لأنباء الفاسقين قد يتخذ وتكون له عواقب وخيمة على مجتمع المسلمين نفسه : « **أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** » .. سواء أكان هذا القوم داخل المجتمع أو خارجه .

---

(٣٥) ال عمران : ١٧٢ ، ١٧٣

وهكذا الحيطة فى كشف الأنباء المغرضة ، والحيطة فى قبول صداقة بعض الناس وهم أعداء حقيقيون : عامل من عوامل البقاء على قوة المجتمع وتماسكه ، وعلى عدم وقوعه فى كوارث ، يدفع إليها التسرع فى القبول وفى رد الفعل ، وعندئذ يكون الندم لوقت طويل .

* * *

● **اشاعات السوء يجب أن تقابل بالحذر .. ثم بعدم تناقلها :**

يتعرض المجتمع ـ أى مجتمع ـ لمحاولات التفكك والتشكيك فى قيمه ، بعد أن يقوم ، ويبدو تساند بعضه لبعض . والمجتمع يتألف عادة أو يقوم على أساس هدف مشترك يؤمن به أفراده . ومحاولات التفكك تتجه إلى خلخلة هذا الهدف المشترك فى نفوس الأفراد بالتشكيك فى صلاحية القيادة وعدم اتخاذها أسوة حسنة ، وبادعاءات تشوه صورة القادة ، إن فى سلوكهم أو فى معاملة بعضهم لبعض .

وقد سجل القرآن قصة « الإفك » بالنسبة للسيدة عائشة رضى الله عنها زوجة الرسول عليه السلام وبنت أبى بكر رضى الله عنه . وهى قصة أراد بها أعداء المجتمع الإسلامى إذ ذاك على عهد الرسول عليه السلام محاولة تشويه سمعة كثيرين ممن لهم شأن فى قيادة المجتمع : وفى مقدمتهم : الرسول عليه السلام .. وأبو بكر رضى الله عنه .. وعائشة رضى الله عنها ، وبعض الصحابة الآخرين . وقصد القرآن من تسجيل هذه القصة : إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم عمله إزاء الشائعات المغرضة التى يحاول أعداؤهم ترويجها بينهم لتمزيق وحدتهم وصرفهم عن قيادتهم ، وبذلك يسقط مجتمعهم ، ولذا ينظر إلى هذه القصة على أنها خير لهم : « **ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم** » (٣٦) ..

وما جاء فى القرآن من إرشاد إزاء إشاعات السوء هو الموقف الذى تقره الحكمة للتغلب عليها ، والحيلولة دون أن يتحقق هدفها من التفكيك والتشكيك .

---

(٣٦) النور : ١١

والموقف الذى يريده القرآن الكريم هنا للمؤمنين فى مواجهة الشائعات المغرضة والمدمرة لا يريده للمؤمنين وحدهم على عهد الرسول عليه السلام .. بل يريده للمؤمنين فى كل جيل وعهد .. وهذا هو الحكمة فى نزول الوحى به واطلاع المؤمنين عليه .

والموقف الذى يمليه الوحى هنا إزاء تلك الشائعات يتلخص فى أمرين :

أولا : ثقة المؤمنين بأنفسهم ، وعدم اهتزازهم عند سماعها والوصول فوراً بالمنطق والدلائل الواقعية إلى تأكيد أنها كذب واضح قصد به تخريب العلاقات الحسنة بين المؤمنين : « **لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين** » (٣٧) ..

وبهذا الموقف تغلق النوافذ جميعها ضد آثارها السلبية على الروابط فى المجتمع « **ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما افضتم فيه** (وهو ترديد قصة الإفك) **عذاب عظيم** » (٣٨) .. (لأنه كان سيسىء حتما إلى العلاقات بين بعضكم بعضاً) .

وثانياً : الوقوف بالشائعات عند حدها الضيق ، وعدم تناقلها من جديد على الألسنة وعدم الخوض فيها ، بإضافة أو بتفصيل وبذلك تقبر دون أن تبعث من جديد : « **اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم** » (٣٩) ..

وهذا الموقف المزدوج يؤكد القرآن أنه للمؤمنين أينما كانوا ، وفى أى وقت وجدوا : « **يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابداً ان كنتم مؤمنين** » (٤٠) .. إذ من لوازم الإيمان فى أى عهد اتباع ما أمر به القرآن هنا وعدم العودة إلى ما وقع فى نفوس المؤمنين يوم ذاك ، على عهد الرسول عليه السلام . من : تزعزع الثقة بأنفسهم وتصور بعضهم صدق ما روى إذ ذاك .. ثم من ترويج هذا الذى روى كذبا ، بنقله من مجلس إلى آخر ، ومن شخص إلى شخص .

---

(٣٧) النور : ١٢
(٣٨) النور : ١٤
(٣٩) النور : ١٥ ، ١٦
(٤٠) النور : ١٧

وهكذا من مبادىء الإيمان الصادق من أجل سلامة المجتمع : أن يكف المؤمنون عن تناقل الإشاعات الكاذبة من الأعداء التى تستهدف تحطيم وحدتهم ، والتشكيك فى قيادتهم السليمة على أن يظنوا قبل ذلك الخير بأنفسهم ، وأن يستبعدوا بادىء ذى بدء ، وقوع هذه الشائعات وبالأخص فى نطاق كلمة طهر وصفاء ، وبعد عن الدنيا وما فيها من متع وإغراء .

* * *

● **الاجتماع سراً بين المؤمنين ينبغى ان يكون على البر والتقوى :**

بعض النظم التى تعد لحكم المجتمعات تدعو إلى سرية الاجتماعات ، ليدبر فيها الاستيلاء على السلطة ، أو ليتفق فيها على سفك الدماء للمعارضين . وإلى أن تستولى بعض هذه النظم على الحكم تباشر الاجتماعات والتجمعات فى سرية ، وتدور فيما يسمى : « تحت الأرض » . . . لتنفيذ كل ما هو غير إنسانى فى الخفاء ، بدعوى الوصول إلى ما هو إنسانى فى العلن .

والإسلام ينصح المؤمنين به إذا اجتمع بعضهم ببعض سراً ، أو آثر بعضهم الحديث مع بعض آخر فى غير علانية : بأن تكون السرية التى التزموها فى غير عدوان على أحد وفى غير معصية لهداية الله ، وفى غير معارضة للقائمين بأمر هذه الهداية ، وأن تكون بالأحرى فى سبيل الخير .. والمصلحة العامة ، وفى سبيل تجنب العدوان والانحرافات ، وإذ يقول القرآن الكريم :

« **يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم** (أى تحدثتم سرًّا بعضكم لبعض) **فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول** (على نحو ما جاء فى كتاب الله) **وتناجوا بالبر والتقوى** » (٤١) .. يقول ذلك لأنه يريد أن يجنب المؤمنين التآمر والانشغال بالمؤامرات والمكايد فى خلقها أو فى مقاومتها . إذ المجتمع الذى تروج فيه المؤامرات ولو بحكم الوهم هو مجتمع يعيش فى ظلام ، وفى خوف وقلق ، بعضه من بعض .

والمجتمع الذى يعيش فى خوف وقلق هو مجتمع غير منتج ، مجتمع غير مترابط .. مجتمع يترقب الغدر ، ويتربص به الهلاك .

---

(٤١) المجادلة : ٩

ويعلل القرآن النهى عن التناجى فى غير المصلحة العامة بقوله : **« انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »** (٤٢) .. أى أن الاجتماع السرى والحديث فيه فى خفاء إنما يكون عادة من وحى السوء وتدبير الهوى والشيطان . وذلك لا يكون لخير عام . إنما لإحداث القلق وعدم الاستقرار بين المؤمنين فى المجتمع . وعلى كل حال ما يصيب المؤمنين من ضرر أيا كان مصدره يصيبهم بإذن من الله .

وموقف المؤمنين إزاء التناجى والاجتماعات السرية هو ألا يقفوا عن العمل والسعى فى الحياة .. ألا يشغلوا بها ويجمدوا حركاتهم . وإنما عليهم الاستمرار فى العمل ، وأن يتوكلوا على الله . أى يكلوا إليه أمر المؤامرات السرية والمكايد . والتوكل على الله يكون بعد أن يفرغ المتوكلون جهدهم البشرى فى الحيطة من الأضرار ومقاومة الشر . إن عليهم أن يبحثوا أولا عن مصادر هذه المؤامرات ويفتشوا عن أنجع الوسائل للوقاية منها ، ثم بعد ذلك : يكلوا الأمر لله القوى القادر . فمهما بلغ الإنسان فى حيطته وتدبيره لوقاية نفسه من الشرور فإنه بعد ذلك فى حاجة إلى الله لمساندته فى الوقاية منها . إذ هو رب الجميع وصاحب التدبير كله فى الوجود .

وهكذا : وضع المجتمعات الإسلامية هو الوضع المفتوح الصريح . ينفر من المؤامرات والمكايد التى تدبر سرا ، والمؤمنون يجب أن يكونوا صرحاء فى إعلان رأيهم ، وألا يتناجوا بالإثم والعدوان ، ومعصية كتاب الله .

وعليهم ألا يحزنوا إذا ما دبرت بعض الاجتماعات السرية الشريرة بينهم . بل يجب أن يتصدوا بالمقاومة والوقاية منها . فالضرر أى ضرر ، لا يلحقهم إلا بإرادة الله ، ومع تصديهم لمقاومتها والوقاية منها وبذل أقصى جهد لهم فى ذلك ، فعليهم أن يتوكلوا على الله ، ويستندوا إلى معاونته : **« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »** (٤٣) ..

* * *

(٤٢) المجادلة : ١٠ (٤٣) الأنفال : ٣٠

● **من ليس ولاؤه للمجتمع الذى يعيش فيه لا يسوى فى الحقوق التى لأفراده :**

يقول القـرآن الكـريم : « **يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله أن شاء ، ان الله عليم حكيم** » (٤٤) ..

والمشركون ليسوا عبدة الأصنام من الحجارة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، وإنما هم عبدة غير الله ــ إنسانا أو حجراً ، أو حزبا ، أو دولة ، أو مؤسسة ، أو هيئة ــ مع كفرهم باليوم الآخر والبعث فيـه . وإيمانهـم بالدنيـا والمحسـوس وحـده . هم الذين سـماهم القرآن : « جاهليين » ، وتسميهم الفلسفة فى كل أطوارها بالماديين . ووصـفهم هنا بأنهم « نجس » للتنفير منهم . وطالما هم يكفرون بالله واليوم الآخر فداخل نفوسهم ليس فيه صفاء ولا شفافية . فهو ظلام . والنجس عادة ينتمى إلى الظلام الذى نكرهه الإنسان ويخشاه .

وتطالب الآية المؤمنين هنا بألا يمكنوا هؤلاء الجاهليين أو الماديين من الاقتراب من المسجد الحرام ، بعد عام فتح مكة . أى تطالبهم بألا يمكنوهم من الكعبة والطواف حولها ، ولا من مشاعر الحج على العموم . وقد كان الحج من أعرافهم وعاداتهم حتى فتح مكة . كان من الحقوق المتعارف عليها بينهم . وقد منعوا هم المؤمنين فى صـلح الحديبيـة من أدائه فى عام هذا الصلح .

والأمر بمنـع المشركين أو الماديين من أداء الحج ، أو من الاقتراب من الكعبة والطواف حولها ليس انتقاما منهم لما فعلوه هم إزاء المؤمنين فى صلح الحديبية . وإنما هو مبدأ عام كما يتناول الجاهليين على عهد الرسول عليه السلام الذين أساءوا إلى المؤمنين ، يتناول الجاهليين أو الماديين فى العهـود اللاحقة لعهده إلى يوم البعث . وقصد منه : الاستخفاف بهم وتحذير المؤمنين من مخالطتهم ، وتوضيح منزلتهم بين الناس جميعاً . ومن يخالطهم كمـن يخالط النجس سواء بسواء .

هؤلاء المشركون كان لهم حق الاقتراب من المسـجد الحـرام بمكة

---

(٤٤) التوبة : ٢٨

والطواف حول الكعبة قبل الفتح ، وحرموا من هذا الحق بعده ، لأن ولاءهم لغير الله ، وعبادتهم لما سواه . وأول بيت لله على الأخص لا يقترب منه إلا من كان ولاؤه لله وحده .

وعلى نحو هؤلاء المشركين فى وجوب عدم مساواتهم بالمؤمنين فى حقوقهم التى كفلها لهم القرآن : من كان ولاؤهم فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة لغير الله ، ولغير مجتمعهم ووطنهم من الماديين ، الذين ينكرون الله واليوم الآخر . فهم يعيشون مع المؤمنين فى مجتمعهم الحاضر ويتجاوزونهم بالولاء ، كما يتجاوزون به مجتمعهم ووطنهم ، إلى أجنبى عنهم .

وإذا كانت سياسة القرآن إزاء الجاهليين أو الماديين بالنسبة لبيت الله فى مكة ، عدم تمكينهم منه ، وحرمانهم من حق هو للمؤمنين وحدهم الآن ، فإن السياسة الرشيدة للمجتمع الإسلامى المعاصر يجب أن تقوم على عدم تمكين الخارجين بولائهم عن حدود أوطانهم إلى من يضمر العداء لها ، ولا يرى منهجه فى توجيه البشرية من سبيل إلا سفك الدماء وشحن النفوس بالكراهية والبغضاء . فلا يولى هؤلاء الأمور التى تتصل بالتوجيه ، ولا يمكنون من إضلال الناس باسم الرأى ، أو باسم آخر .

قد كان للمشركين حق الاقتراب من الكعبة ، فمنعهم الإسلام ــ بعد أن انتصر ــ هذا الحق . وبرر هذا المنع بأنهم مصدر رخيص لإيذاء المؤمنين ، كالقذارة إذا ما تفشت بين الناس لا يسلم من ضررها إنسان .

وإن خشى المجتمع الإسلامى المعاصر فقراً أو شدة من جراء هذه السياسة الإسلامية فالله وحده صاحب الفضل والنعمة . وهو العليم بمصلحة الشعوب والمجتمعات ، والحكيم فيما يوصى به من وصايا للحفاظ على هذه المصلحة : **« وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ، ان الله عليم حكيم »** ..

* * *

● **غضب الأثرياء من اصحاب الحاجة فى المجتمع لا يدفع الى امساك العطاء عنهم :**

فى نصح الله للإنسان يريد أن يجنبه « الانفعال » فى تصرفاته ويعوده

على التريث والاتزان فيها ، وبالأخص فى علاقته بالآخرين معه فى مجتمعه . لأن الانفعال ظاهرة نفسية تخرج فيها النفس عن حد الاعتدال . فالإنسان وهو منفعل إذا فكر لا يأمن الخطأ فى تفكيره . وإذا حكم فكثيراً ما يجانبه الصواب . وإذا تصرف قد يقوده تصرفه إلى ما لا يحمد عقباه بالنسبة له ، أو بالنسبة للآخرين .

وانفعال الإنسان غالباً يكون بسبب الغير . وهنا يتجه نصح القرآن للإنسان إذا ما انفعل وغضب بسبب الغير ، بألا يكون رد الفعل منه ضد مصلحة هذا الغير . بل يجب عليه أن يبعد الغضب فى رد الفعل ، ويعزله تماما ، ويظل موضوعيا ، أى يفعل الشيء بما ينبغى أن يكون عليه .

وفى مجتمع المدينة على عهد نزول القرآن ضاق بعض الصحابة من ذوى اليسار والفضل فى المال ، بتصرفات بعض أقاربهم من ذوى الحاجة إلى عطائهم ، من الذين شاركوهم فى الهجرة من مكة إلى المدينة . وتردد أصحاب هذا الفضل فى المال بينهم وبين أنفسهم بسبب هذا الضيق ، فى قطع عطائهم عن ذوى قرابتهم وهم مساكين فى حاجة إلى العطاء ، فجاء الوحى ينهى عن قطع العطاء ، ويطلب العفو والصفح عنهم فيما أساءوا به إليهم ، ونزل قوله تعالى :« **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة** (أى لا يمتنع أصحاب الرزق الواسع منكم بحلف اليمين) **أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا** » (٤٥) ..

وإذ ينهى القرآن هنا أن يكون لانفعال الغضب من أصحاب الحاجة أثر فى قطع عطاء الأغنياء عنهم ، فإنه يريد مصلحة الطرفين : يريد مصلحة الأغنياء فى ألا يكون هناك من أصحاب الحاجة حقد عليهم .. ويريد مصلحة المساكين فى استمرار مساعدة الأغنياء لهم على دفع حاجتهم . وبتحقيق مصلحة الطرفين يظل التماسك فى المجتمع ، وهو تماسك نفسى لا تؤثر فيه الفجوة بين الغنى والفقير فيه .

وفى الوقت ذاته يبقى المستوى الإنسانى فى العلاقات هو المستوى السائد ، وهو مستوى تحرص عليه الحكمة فى التصرف والبعد فيه عن الحمق أو الغضب .

---

(٤٥) النور : ٢٢

وعلى شاكلة هذا التوجيه فى إبعاد الغضب والانفعال فى علاقة الأغنياء بأصحاب الحاجة يوصى القرآن بإبعاد الغضب والانفعال فى دائرة العدل بين من هم سبب الغضب ومصدر الانفعال فيقول :

« **ولا يجرمنكم شنآن قوم** (أى لا يكسبنكم ولا يحملنكم بغضاء قوم) **على الا تعدلوا** » (أى على عدم العدل بينهم) **اعدلوا هو اقرب للتقوى** » (٤٦) ..

والمبدأ القرآنى إذن هو ألا يصدر من مؤمن تصرف أو رد فعل إلا فى حدود المستوى الإنسانى .. إلا فى حدود ما تقره الحكمة والتريث فى التفكير . فالمؤمن يجب أن يكون صاحب إنسانية . وإيمانه يجب أن يكون عاملا إيجابيا فى تحويله من ذاتى إلى إنسانى . والانفعال ظاهرة فى تصرف الطفولة ، بينما الحكمة أساس فى تصرف الرشيد .

وهنا سياسة المجتمع يجب أن تتوطد على إبعاد الانفعال من مجالها ، أى يجب أن تكون الحكمة هى الرائدة . والحكمة ليست أكثر من الاتزان فى الرأى ، وفى التعبير والموضوعية فى الحجة .

* * *

● **مشقة الابتلاء هى السبيل الى الجزاء بالخير :**

الإنسان عرضة للفقر والحرمان ، كما هو عرضة للعجز أو المرض . وليس من السهل أن يتحمل الفقر أو المرض . بل فى تحمل أى منهما مشقة ، ربما تدفع به إلى اليأس من الحياة ، أو شبه اليأس منها .

ولكن الإنسان المؤمن إذا نظر إلى الدنيا على أنها دار اختبار ، وأن الابتلاء فيها كما يكون بعدم الحصول على متعها ، يكون أيضاً بنعمها من مال ، وجاه ، وأولاد .. فإن نفسه عندئذ تتحمل الفقر أو المرض ، كما لا تخدع بالنعم ولا تفتن بالأولاد .

ويعبر القرآن الكريم عن أن الابتلاء بالفقر أو بالمرض

---

(٤٦) المائدة : ٨

وبالأزمات يكاد يكون هو السبيل إلى نعم الآخرة ، فى قوله تعالى . « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة** (يوجه الخطاب للمؤمنين ، والرسول معهم) **ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ،** (أى لا تحسبوا أن طريق الجنة سهلا . بل هو محفوف بالمكاره .. بل هو الصبر على البأساء والضراء والأزمات التى تزلزل النفوس وتثير فيها التساؤل من شدة وقعها : متى تنتهى ويأتى نصر الله عليها أخيراً . ويستوى فى زلزلة النفوس عندئذ : نفوس الرسل أو نفوس المؤمنين بهم) **ألا ان نصر الله قريب** » (٤٧) .. (ولكن مع شدة هذه الأزمات وتأثيرها على النفوس المؤمنة فإنها لابد أن تنتهى إلى الفرج وإلى النصر . لأن الله وعد المؤمنين به حقا : بالنصر . وهو النصر على أهواء النفوس وشهوتها .. وعلى أعداء الإيمان .. وعلى الشدائد فى الحياة المادية) .

والقرآن إذ يجعل الفقر أو المرض ، والأزمات عامة ، كقاعدة أساسية فى حياة الإنسان يبتلى بها ، ويختبر صبره وتحمله عن طريقها ، لا يحمله — كما قد يقال — على الرضا بحياة المترفين ، والسكوت عن عبثهم وإسرافهم فى الأموال ، مع حاجة المحتاج وحرمان الفقير ، وعدم تكسب العاجز — أى لا يحمله على قبولها . وإنما ليكون مطمئن النفس يوم يكون غنيا فيهوى من غناه إلى الفقر .. ويوم يكون صحيح البدن فتصيبه العلة .. ويوم يكون فى يسر فتحل به الأزمات القاسية .

وليس هناك من بين الناس من ليس عرضة لنقيض وضعه القائم ، بعد أن أصبح الموت لا مفر منه ، يأتى عقب حياة له تطول أو تقصر . فالمال يأتى ويذهب ، ثم يأتى ، وكذلك الصحة والمرض ، والعسر واليسر ، فاذا كان الإنسان مستعداً نفسياً لأن يستقبل الفقر كما استقبل الثراء من قبل..ويستقبل المرض كما استقبل الصحة .. ويستقبل الموت كما استقبل الحياة ، فإنه يعيش غير مهتز وغير مضطرب .

والإنسان المطمئن والمستقر يمكنه أن يستأنف حياة جديدة فى يسر ..

---

(٤٧) البقرة : ٢١٤

يمكنه أن يتغلب على المصاعب والمشاق .. يمكنه أن يعود إلى الوضع المقبول لديه .. يمكنه أن يكون ذا مال ، وذا صحة ، وصاحب رخاء .

وهكذا : الابتلاء بالفقر وبالمرض ، وبالأزمات ، والإيمان بذلك . قانون للحياة الإنسانية ذاتها ، أو عامل تجديد فيها ، أو السبيل إلى السيطرة على الشدائد والمكاره فيها .

والقرآن لا يخدع المؤمنين يوم يدعوهم إلى الصبر والتحمل عند المكاره ، ويضع أمامهم مبدأ الابتلاء بالشدائد والأزمات فى حياتهم الدنيوية، وهو لم يجعل جزاء الآخرة لمن نجح فصبر وتحمل على المكاره الجزاء الأول والأخير للإنسان . بل هناك بجانب الجزاء الأخروى جزاء آخر دنيوى ، وهو القدرة على التغلب على المصاعب وعدم الاستسلام إلى اليأس والقنوط من ثقلها على النفوس . ولذا : إنهاء الإنسان لحياته جريمة يرتكبها فى حق نفسه ، ويراها الإسلام إفلاساً وضعفاً عند مواجهة الشدائد ، كما يرى فيها هربا من الابتلاء والإيمان به .. يراها كفراً ، أو شبه كفر .

* * *

● **ابتلاء المؤمنين بالشدة أمر مقدور لله :**

حتى لا يؤخذ المؤمن فى حياته بسبب إيمانه ، على غرة : يبدد القرآن الكريم تصوراً قد يرد بخاطر المؤمنين . وهو أن جيلا من أجيالهم قد يتجاوزه القدر فلا يتعرض للابتلاء بالشدة ، والضيق ، والقلق الذى قد يبلغ قمته . والقرآن بما يبدده هنا من تصور خاطىء يضع المؤمنين فى واقع الحياة ، ويبعدهم عن دخول البرج العاجى . برج الأمل الواسع والخيال الفضفاض فى إعفاء الله إياهم ، كى تكون ممارستهم للحياة ممارسة عملية ليس فيها مفاجأة أو خيبة أمل .

ومن هنا كان من لوازم إيمان المؤمن أن يدرب نفسه على إرادة الحرمان مما تشتهيه النفس . وقد جاءت عبادة الصوم لشهر رمضان كل عام لتعد نفس المؤمن بهذه الإرادة ، ولتذكره عند قدوم شهر الصوم : أن ليس من المفاجأة فى حياته أن يوضع فى أى وقت أمام حرمان يكره عليه ، وربما يكون أقسى من حرمان الصوم . ولكن استعداده النفسى لتقبل الحرمان

الإرادى وباجتيازه مرحلته وهو مطمئن هادىء ، يستطيع أن يمر بما يكره عليه وهو غير ممزق النفس .. وهو غير يائس .. وهو صابر متوكل على الله .

ومثل هذا المؤمن يكون فى نفسه قوة ، ريزيد فى قوة الآخرين معه ، وقوته قوة نفسية ، قبل أن تكون قوة بدنية . وصلاحية أى إنسان للحياة هى بنفسه أولا .

القـرآن الكريم يقـول للمؤمنين : « **ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله** » (٤٨) .. أى أنكم إن ظننتم هذا الظن وهو أنكم بمنجاة ــ يوما ما ــ من الابتلاء والاختبار فى هذه الحياة الدنيا ، بالشدائد والأزمات والقلق النفسى المريع الذى قد يبلغ أمره بكم : أن تتشككوا فى إنقاذ الله إياكم .. تكونون قد أخطأتم فى حق أنفسكم ، وفى حق التاريخ معا . فابتلاء المؤمن بسبب إيمانه مبدأ إنسانى ، واجتماعى يقع ويتكرر ، كلما حلت بالإيمان أزمة الماديين والجاهليين الذين من شأنهم أن يصدوا عن سبيل الله ويبغونها عوجا .

وأما تشككم فى إنقاذ الله إياكم من المحن مهما كانت قسوتها فهو أمر خاطىء فى ذاته كذلك . لأن الله يفى بوعده بنصر المؤمنين ، إذا كانت محنهم بسبب إيمانهم ، وليست بسبب سوء تصرفهم : « **ألا ان نصر الله قريب** » (٤٩)

* * *

فابتلاء المؤمنين بسبب إيمانهم بالله أمر مقـدور فى علم الغيب . وهو مبـــدأ لا يتخلف : « **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** » (٥٠) .. فعن طريق هذا الابتلاء ينعزل الخبيث وهو المنافق فى إيمانه عن الطيب الذى قد صدق فى إيمانه . وفصل المنافق فى الإيمان عن الصادق فيه ، أمر تقتضيه ضرورة تماسك المؤمنين فى مجتمعهم .

وإذن : المؤمن وإن كان هدفا بسبب إيمانه لعنت الماديين أو الجاهليين ،

---

(٤٨) البقرة : ٢١٤ (٤٩) البقرة : ٢١٤

(٥٠) آل عمران : ١٧٩

فإيمانه هدف كذلك لشهوته وهواه وأنانيته ونجاحه ضد شهوته وأنانيته هو طريق لنصر الله على عدوه .

وهكذا : نصر الله للمؤمن مرتبط بنصر المؤمن لإيمانه على هواه . فالله لا ينصر من يعلن الإيمان ، دون أن يكون صادقا فيه .

وهكذا : إذا كان الابتلاء للمؤمن بالشدة مقدوراً لله ، فذات المؤمن هى مصدر نصره أو هزيمته .

* * *

● قد يكون الطريق الشاق هو السبيل الى خير المجتمع :

شاء الله أن يلتقى فى غزوة « بدر » : المؤمنون ، وهم قلة ضعاف ، بالمشركين وهم كثرة أقوياء . وربما لو شاء المؤمنون أنفسهم أمراً بشأن هذا الالتقاء لما اختاروا أن يلتقوا بأعدائهم ، والطرفان على نحو ما وصفنا غير متكافئين . وربما كانوا يؤثرون أن تكون لهم غنائم الحرب ، دون أن يباشروها .

مشيئة المؤمنين هنا تتصل بأنفسهم وبالمحافظة عليها مع الرغبة فى الحصول على منفعة مادية لا يواجهون فيها مشقة ولا عنتا . وهذا أمر قريب إلى النفوس البشرية فى رغباتها فى هذه الحياة وفى طبائعها . ومشيئة الله هنا ترتبط بمستقبل الرسالة التى آمنوا بها ، والتى التزموا الدعوة إليها ، وحماية هذه الدعوة ، فإذا انتصر المؤمنون فى هذا الالتقاء فى « بدر » ــ وسينتصرون بفضل إيمانهم وثباتهم عليه ــ فسيكون النصر فيه درساً قاسياً للمشركين فى علاقتهم مستقبلا بالمؤمنين . فالطرفان غير متكافئين ، ومع ذلك كان النصر للقلة القليلة الهزيلة ــ ضد الكثرة القوية العاتية . وسيتردد المشركون كثيراً بعد ذلك فى مواجهة المؤمنين . وهذا التردد نفسه سوف يتيح الفرصة للدعوة إلى الإيمان بالرسالة بين المشركين أنفسهم وإلى تقبلها من كثير منهم . لأن سر النصر كان فى قوة الإيمان ، وليس فى القوة المادية وحدها .

وكأن المؤمنين الآن وضعوا أمام اختبار صعب .. أمام رغبة النفوس

وطبائعها وأمانيها . والطريق إلى ذلك لا يكلفهم مشقة ، وأمام الالتزام بمؤازرة الدعوة إلى دين الله وتثبيته وإحقاقه بينهم وبين أجيال البشرية القادمة ، وهذا يتطلب الكثير من الجهد والتضحية بالنفس .

وطالما شاء الله أن يسلك المؤمنون طريق الجهد والتضحية بالنفس فى لقاء الأعداء فى غزوة بدر ، فإن مشيئته هنا لابد أن تنطوى على مصلحة أكبر ، تفوق بكثير تلك المنفعة المؤقتة التى تصبوا إليها رغبات النفوس ، دون أن تتحمل أى عبء نفسى فى سبيلها وراء الرغبة ذاتها .

وقد سجلت سورة الأنفال هذا الاختيار الصعب فى قوله تعالى : « **واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم**(الطائفتان هما : إما الحصول من غير حرب على ما للمشركين من أموال التجارة والركائب فى قدومهم من الشام فى طريقهم إلى مكة .. وإما دخول الحرب معهم ، إن تحددت هذه الحرب من قبل المشركين معهم . فما خططه المؤمنون فى غزوة بدر هو أن يعترضوا طريق المشركين . عندئذ إما أن يترك المشركون أموالهم ويولوا الأدبار ، فتصبح للمؤمنين ، وإما أن يدخلوا فى حرب مع المؤمنين لدفعهم من طريقهم) **وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم** (أى وكنتم وأنتم أيها المؤمنون تودون الأمر السهل بالنسبة لكم وهو أن تحصلوا على أموال المشركين بدون قتال)**ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** » (٥١) .. (بينما كانت إرادة الله تتمثل فى أن تدخلوا الحرب معهم وينصركم عليهم . وعندئذ يثبت الدين ويستقر أمر أمتكم ، وينتهى أمر الكافرين بالنسبة لكم) .

والكلمات التى تجلت فيها إرادة الله هى ما جاءت فى قوله تعالى فى السورة نفسها : « **اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** » (٥٢) ..

ومعاونة الله للمؤمنين هنا فى سبيل النصر هى ثبات المؤمنين على إيمانهم

---

(٥١) الأنفال : ٧ (٥٢) الأنفال : ١٢

مع قلتهم وضعفهم بالنسبة لأعدائهم . وهذا الثبات نفسه هو الذى أثار الرعب فى قلوب الأعداء . ومتى احتل الرعب النفوس اختل توازنها ولزمتها الهزيمة حتما .

وحياة الأمم والشعوب ــ كحياة الأفراد ــ تتعرض لمشاكل وأزمات ولكل مشكلة أو أزمة حل مؤقت يسير ، تتحمله النفوس فى غير عناء ولكنه غير قاطع ، وآخر شاق بعيد الأثر فى الحياة ، وهو وحده مصدر الاستقرار والاطمئنان .

والقرآن بما عرضنا هنا من مبدأ اجتماعى ونفسى يوصى باتباع الحل الجذرى للمشكلة أو الأزمة وإن ترتب عليه تحمل المشاق . واتباع هذا الحل الجذرى يراه الإسلام جزءاً من السياسة الرشيدة للأمة .

* * *

● **الايمان .. والقتال :**

يحدث الإيمان بالله فى نفوس المقاتلين صوراً عديدة ، لا تبعدهم فحسب عن التهيب من القتال ، وإنما مع ذلك تدفعهم إلى لقاء الأعداء والنصر عليهم .

ومن هذه الصور ما يذكره القرآن الكريم فى سورة الأنفال فى قول الله تعالى : « **اذ يريكهم الله فى منامك قليلا** » (٥٣) .. (أى يريك أعداءك فى نومك عدداً قليلا ، تشجيعاً لك على لقائهم) . فيذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ، كقائد لجيش المؤمنين فى غزوة « بدر » : بالصورة الإيمانية النفسية التى ملكت عليه زمام أمره قبل لقائه مشركى مكة ، وهم فى طريقهم من الشام ، حتى كان يستحضرها فى نومه ، وهى تلك الصورة النفسية التى استخف فيها بعدد الأعداء ، ورأى فيها ضآلتهم . وقد نقلها إلى المؤمنين معه فانطبعت فى نفوسهم كذلك . وأصبحوا أيضاً عند مواجهتهم يرونهم قلة . ويحكى هذا الانطباع قوله تعالى فى الآية التالية : « **واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا** » (٥٤) .. (أى يريكم ــ أيها

---

(٥٣) الأنفال : ٤٣ (٥٤) الأنفال : ٤٤

المؤمنون ــ أعداءكم ، رؤية عين ومشاهدة ، حينما التقيتم بهم فى القتــال : قلة فى العدد ، على نحو ما نقل إليكم الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ما رآه فى منامه) .

فقوة الإيمان دفعت الرسول عليه السلام والمؤمنين معه ــ وتدفع فى كل وقت بعد ذلك ــ بالروح نحو القتال إلى تصور : أن أمر الأعداء هين ، عندما يزداد تعلقهم بالدنيا ، وتغلب عليهم الأنانية ، ويخف عندهم شــأن التضحية . ولا يقاس أمر هؤلاء عندئذ بكثرة عددهم . فهم رغم كثــرة العدد قليلو الأثر عند المواجهة واللقاء فى القتال .

والله يمتن الآن فى غزوة بدر على المؤمنين : أن هداهم للايمــان ، حتى قويت فيهم روح التضحية فى سبيل الله ، والمصلحة العامة للأمــة ، وتثبيت القيم العليا للانسانية . وعن قوة هذه الروح كان النصر لهم على أعدائهم . فهو يذكرهم بالنجاح فى هذه الغزوة مع أن الوضع القتالى كان غير ملائم لهم فى ميدان القتال . فقد كان عددهم قليلا .. وكانوا يقفون بشط الوادى، دون ماء لهم ولإبلهم ، وعلى أرض رخــوة تسوخ فيهــا الأرجل . كما كان ركبهم على الإبل بعدهم إلى أسفل ، قريبا إلى البحر ، لا يستطيع توفــير الحماية لهم إلا بمشقة . بينما أعداؤهم كانوا كثيرين فى العــدد والقوة . يقفون على ربوة عالية ، ولديهم آبار المياه .. وكان ركبهم على العير وراء ظهورهم مباشرة ويستطيع حمايتهم فى يسر .

ولكن مع عدم التعادل بين الطرفين فى القــوة المادية وفى الوضــع الاستراتيجى فى ميدان القتال كان النجاح فى جانب الطرف غير المتفوق فى العدد ، والقوة والموقع . وهو جانب المؤمنين ، لأن هؤلاء كانوا متفوقين فى قوة الإيمان بالله ، وفى بيعهم نفوسهم ، وما تملك أيديهــم ، فى ســبيل الدفاع عما يؤمنون به من قيم ومبادىء إنسانية رفيعة .

ولو أن إيمانهم كان ضعيفاً لتهيبوا لقاء أعدائهم . إذ كانوا يتصورون عندئذ : تفوقهم فى القوة المادية أكثر بكثير من واقع أمرهم . وكان هــذا التصور يوحى لهم بالتردد ، ثم بالنزاع فى الإقدام عليهــم ، ثم بالفشــل والهزيمــة أخــيراً . « ولو أراكهم كثيراً (أى ولو أراكم أيهــا المؤمنون

أعداءكم كثيراً فى هذه الغـزوة فى تصـوركم) **لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم** ، (بأن كان إيمانكم يعمر قلوبكم ويسد عليـكم منافذ الشك فى النصر عليهم ، ويحول دون التردد ودون عدم التضحية بنفوسكم فى سبيل عزتكم وعزة إيمانكم) **انه عليم بذات الصدور** » (٥٥) ..

.. وإذا كانت قوة إيمان المؤمنين صورت لهم أعداءهم قلة فى العـدد والشأن ، وبذلك دفعتهم إلى الإقدام على قتالهم .. فإن خداع هؤلاء الأعداء وغرورهم بكثرة عددهم فى الواقع دعاهم إلى تصور قلة المؤمنين وضعف أمرهم ، وبذلك لم يترددوا فى اللقاء بهم كذلك ، وهنا تمت المعركة .. وتم لقاء المؤمنين بأعدائهم ، ولقاء الأعداء بالمؤمنين ، مع اختلاف الدافع على اللقاء إذ كان هذا الدافع عند المؤمنين قوة إيمانهم .. بينما كان عند الأعداء تقليلهم لأمر المؤمنين . ولولا هذا الدافع المختلف على معركة « بدر » لكل من الطرفين ما كان اللقاء بينهما ، وبالتالى ما كان النصر لأولئكم المتفوقين فى الإيمان بالقيم العليا ، وهم المؤمنون .

وإرادة الله جل شأنه إذن : شاءت هذا اللقاء لأول مرة بين المؤمنين والوثنيين الماديين ، كما شاءت أن يكون النصر للإيمان ليتجلى للنـاس ، وليسجل فى تاريخ القتال والحرب : أن قوة الإيمان بالقيم العليا ــ وأمارة هذه القوة هى التضحية بالنفس والمتع المادية ــ عامل حاسم فى النصر ، وإن كان ميزان القوى المادية بين الطرفين ليس متساوياً . أو من جانب آخر ليتجلى : أن القوة المادية من غير إيمـان لا تقـوى على هزيمـة المؤمنين وإن كانـوا ضـعفاء : « **وإذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله امراً كان مفعولا** ، (وهو نصر المؤمنين القـلة إذ ذاك) **والى الله ترجع الأمور** » (٥٦) .. (فهو الذى يحسـمها ويفصل فيها . وقد وعد بنصر المؤمنين . ووعده حق عليه ، لا يخلفه) .

* * *

● **من يدعو الى الخير والاصلاح فالله يقيه السوء :**

يقول الله لرسوله محمد عليه السلام : « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك**

---

(٥٥) الأنفال : ٤٣ (٥٦) الأنفال : ٤٤

من ربك ، (فيطلب إليه تبليغ الوحى إلى أقربائه ، وأعدائه ، وأتباعه على السواء) **وإن لم تفعل** (فجاملت الآخرين فى التبليغ فلم تنذر الزعماء بما كلفت بإنذاره إياهم ، طمعاً فى مرضاتهم ، وخوفاً من مكروههم) **فما بلغت رسالته** ، (فأنت عندئذ ــ عند مجاملتك إياهم فى تبليغ المطلوب إليهم ــ لم تبلغ ما أرسلت به من قبل الله) **والله يعصمك من الناس** ، (ولا تخش على حياتك من هؤلاء الزعماء . فالأمان لك قد تكفل به مولاك جل جلاله ، وعصمتك منهم تمهد بها صاحب الوجود ، وصاحب الخلق والحركة فيه ، وهو الله تعالى اسمه فى الأرض والسماء) . **إن الله لا يهدى القوم الكافرين** » (٥٧) .. (وهناك حقيقة لابد أن تعلمها وهى : أن الزعماء فى المجتمعات المادية التى تدعوها برسالتك إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ليس من السهل إقناعهم . لأن عدم إقناعهم ليس بسبب عدم الدليل والحجة على ما تدعوهم إليه . وإنما بسبب وظائف الزعامة فى المجتمع ، وهى وظائف لها وفرة من المال ، وكثير من الجاه ، ونفاذ فى الحكم . وهنا هم يبتعدون عن الهداية بحيث يصبحون أتباعاً وليسوا زعماء ، ولكن رغم ذلك يجب أن تبلغهم بما يوحى إليك وإن كانوا لا يرضون عنه بسبب صلفهم وعنجهيتهم ، ولا يرضون عنك بسبب إزعاجك لهم بدعوتهم إلى ما تدعوهم إليه من حق ، وبطلبك إياهم تجنب الباطل فى حياتهم وحياة من يتزعمونهم) ..

فتقرن الآية طلب تبليغ الوحى بضمان وقاية الرسول عليه السلام من السوء ومن أى مصدر يأتى منه . وضمان الله وقاية الرسول من السوء ليس لأنه رسول ، وإنما لأنه داعية إلى خير الناس وهدايتهم . فالداعية لا يأخذ أجراً ممن يدعوهم ، وليست له مصلحة شخصية بينهم ، كزعامة أو رياسة وإنما يدعو لوجه الله فقط ، وأمين على ما يدعو إليه لا يزيد فيه حرفاً ، ولا ينقص منه حرفاً ، وبذلك يكون متمحضاً لفعل الخير ومن هنا يضمن الله وقايته من أعداء الدعوة والمتربصين بها شراً .

وإذ يضمن الله حياة الرسول ، أو حياة الداعى إلى الهدى والخير ،

---

(٥٧) المائدة : ٦٧

فإنه يضمن فى الواقع وجود دعوته بين النـاس . ووجـودها بين النـاس ضرورة من ضروريات الحياة الإنسانية . فالعقل فى الإنسـان قد يضعف أمام هـواه . ولذلك يخطىء الإنسـان ولا يعـرف جانب الصـواب . « **يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا** (**وهو لباس الهـداية والرسالة الإلهية**) **يوارى سوآتكم** (أى يستر نقائصكم . وهى تلك النقائص التى لا يستطيع العقل البشرى أن يتلافاها) **وريشـا** » (أى ومع كون هداية الله سترا لنقص الإنسان فإنها كذلك زينة للإنسان لأن اتباعها يجنبـه الأخطـار) **ولباس التقوى ذلك خير** » (٥٨) .. (أى وهذا اللباس الذى يقـوم على اتقاء الموبقات وتجنب الفواحش والمنكر ، والأخطار والآثام ـ كما جاء فى هداية الله ـ هو خير من العقل الذى قد يضعف فلا يدفع هوى لنفس أماره بالسوء) .

والداعية إلى الحق والإيمان بالله إذن كما لا يلاحقه اليأس من عدم نجاح دعوته : لا يلاحقه الأذى والضرر من عدو الله لعصمة الله إياه ، ووقايتـه إياه من مؤامرة الإنسان . « **ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين** » (٥٩) ..

* * *

● **اطمئنان المؤمن الى ولاية ربه :**

ليست حياة الإنسان كلها رخاء . وليس وقوف الأقرباء والأصـدقاء بجانب الإنسان فى الأزمات أمر موثوق به . وليست طاقات الإنسان فى كل وقت حاضرة ، كى تصد العدوان عليه أو تنقذه من مشاكله وشدائده . ولذا فالإنسان فى حاجة إلى سند دائم يفوق فى قدرته وتدبيره كل مخلوق موجود لا يغلب على أمره بحال .

والله وحده صاحب التفوق فى قدرته وعـزته ، وصاحب الكلمـة إذا قال : كن فيكون . وقد وعد سبحانه : أن يكون قريباً من عباده المؤمنين يجيب دعوة الداعى منهم . لا يتركهم وحدهم فى شـدائدهم ، ولا يتخلى

---

(٥٨) الأعراف : ٢٦ (٥٩) آل عمران : ٥٤

عنهـم فى أزماتهـم . وقد قال : « **واذا سالك عبادى عنى فانى قريب ، اجيب دعوة الداع اذا دعان** » (٦٠) .. ووعد هنا ، ووعده لا يخلفه أبداً .

وما على الإنسان الذى يريد أن يطمئن فى حياته إلى سند أمين موثوق به يقف بجانبه فى وقت الحاجة والشدة ، إلا أن يستجيب لدعوة خالقه فى رسالته ، ويؤمن به وحده ، لا يشرك معه موجوداً آخر فى العبادة ، ولا يطلب من سواه ما قد تدفع الضرورة إلى طلبه . فإذا استجاب إلى دعوة الخالق فى رسالته فإنه سيأمن الزلل والانحراف فى السلوك والمعاملة للآخرين : وبذلك يكون رشيداً فى فعله وتصرفاته . وإذا آمن به وحده يكون قد احتفظ بكرامته كإنسان ، ودفع عنه الامتهان والمذلة التى تصيبه عندما يسلك طريق الوثنية والشرك : « **فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** » (٦١) ..

.. ونفس الاستجابة للخالق فى رسالته ستقلل من أزمات المؤمن به . لأن معنى الاستجابة لذلك : أن يحد المؤمن من اتباع الشهوة والهوى فى النفس ، وأن يشارك الآخرين معه فى متع هذه الحياة ، وفى فرصها التى ستتكافأ حتما ، عن طريق عدم طغيان الأنانية . وإذا قلت أزمات الإنسان ، وقلت مواجهته للآخرين معه ، فى عدوانهم أو فى تربصهم للعدوان ، كان هناك مجال أساسى فى نفسه للاطمئنان ، يزيده عمقا وسعة : اعتماده على الله وحده .

والاحتمال فى حياة المؤمن لترقب الأزمات والشدائد ، يكون بسبب الإيمان ذاته . فليس من السهل على المؤمن أن تمر حياته فى يسر ، أو فى رخاء ، دون أن يصطدم بطغيان المادية التى هى العدو الأول والأخير للإيمان بالله . ولكن بالصبر ، مع الركون إلى الله ، ينتهى أجل الأزمة والشدة ، دون أن يفقد من إيمانه شيئاً .

ثم طالما كان المؤمن ليس هو الإنسان المترف ، أى الذى يمارس الترف ، أو يسعى إليه كهدف فى الحياة ، فالمعاناة التى سيجدها فى أزمته ، ستتم عليه عندئذ ، دون أن تترك أثراً يشككه فى قيمة الإيمان .

---

(٦٠) البقرة : ١٨٦ (٦١) البقرة : ١٨٦

.. فإذا لم يستجب الله لدعوة الداع ، وإذا لم يحس الداع بالاطمئنان النفسى لسند الله إياه وقت الشدة . فليثق أولا فى أنه من عباد الله . لأن استجابة الله مرهونة بأن الداع من عباده . أى إنه من المخلصين فى إيمانه ، والمهتدين بهدايته فى تفكيرهم وفى أفعالهم .

فالمؤمن على سبيل الحقيقة هو الذى يشعر بالسكون والاطمئنان فى جانب الله . ويشعر بالقوة عندما ينادى الله « **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون** » (٦٢) .

* * *

● **الحرية هى سبيل العدالة الاجتماعية :**

يرى الإسلام فى المال : أن ملكيته ملكية خاصة ، وأن منفعته منفعة عامة ، للمالك ولغير المالك على السواء .

ويقول القرآن الكريم : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** ، (البعض يملك منه كثيراً .. والبعض يملك منه قليلا .. والبعض لا يملك منه شيئا) **فما الذين فضلوا** (وهم أصحاب الأموال) **برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم** (أى لا يردون من أرزاقهم وأموالهم التى يملكونها على عبيدهم وأرقائهم ، إن هم أنفقوا عليهم منها) **فهم فيه** (أى فى الرزق الذى بأيدى المالكين له) سواء » (٦٣) .. (أى فى الانتفاع به . لأن الرقيق لا يجوز له أن يملك وهو نفسه ملك سيده ، فهو وما بيده فى ملك سيده) . فالآية القرآنية تحدد هنا أمرين فى شأن المال :

الأمر الأول : أن ملكية المال فى الأصل ملكية خاصة ، وأن التفاوت فى الملكية بين الناس من سنن الحياة الإنسانية .

الأمر الثانى : أن منفعة المال الخاص ــ أى المملوك ملكية خاصة ــ ليست قاصرة على مالكه ، بل يشترك فيها من لا يملك المال أيضاً ، ولا يجوز لهم أن يملكوه كذلك .

---

(٦٢) الانفال : ٢ (٦٣) النحل : ٧١

فتعقيب الآية بقولها : « **فهم فيه سواء** » .. يفيد أن المساواة بين المالك وغير المالك للمال هى مساواة فى قضاء المصلحة فيه . أى مساواة فى الانتفاع به . وبذلك ينتفى أن يراد من قوله تعالى : « **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم** » .. إن الإنفاق على الأرقاء من مال أسيادهم لا ينقص من أرزاق هؤلاء الأسياد شيئاً ، على نحو ما جاء فى الصدقات فى قول الله تعالى : « **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** » (٦٤) .. فالصدقة هى إخراج من مال المتصدق ، وليست إضافة إليه ، ومع ذلك فهى سبب فى نمو المزكى عند الله .

وإذا كان الأرقاء أصحاب مصلحة ومنفعة فى أموال أسيادهم ـ كما تذكر الآية هنا ـ فإن أصحاب الحاجة فى الأمة عامة بحكم الزكاة تتعلق حقوقهم فى سد حاجاتهم بأموال الأغنياء فيها الذين تجب عليهم الزكاة وبالمقادير المقررة فى أموالهم .

وإذا كان رأى الإسلام فى المشاركة فى منفعة المال حتى هذه اللحظة رأيا نظريا فإن تطبيقه يتوقف فى حياة الإنسان على أداء عبادتين : أولاهما : عبادة الصوم . فهذه العبادة إذ تعد الصائم لأن يسود بإرادته على شهوته وهواه ، فإن سيادته هذه هى العامل الحاسم فى جعل المشاركة فى منفعة المال ، أمراً واقعياً . فهذا الصائم قد اشتدت إرادته باختياره الحرمان فى صومه ، دون أن تلين قناته لميل أو إغراء شهوة .

.. وطالما كان عامل الإرادة القوية قائما فى نفس الإنسان فإنه لا يتردد فى إشراك الآخرين أصحاب الحاجة معه فى منفعة ماله ، اعتقاداً منه أن هذه المشاركة مصدر آخر للقربى إلى الله .

وثانى هاتين العبادتين : الزكاة . فهى الممارسة العملية للإرادة الحرة فى الإنسان التى تكونت عن طريق الصوم . والزكاة يمكن أن يماطل فى إخراجها الإنسان إذا لم يأخذ نفسه بأداء عبادة الصوم ، أخذا يجعل الصوم عنده ، عادة تؤدى فى غير مشقة .

والعدالة الاجتماعية عن طريق المشاركة فى منفعة المال لا تتحقق ولا

---

(٦٤) البقرة : ٢٧٦

تؤدى فى يسر إلا إذا كان هناك التزام خلقى من الأفراد بتعبيد الطريق لها . والإيمان بالله ، والتدريب على أداء عباداته هو الطريق المعبد لها ، وليس الإلزام بقوة القانون ، أو بفرض وصاية على الأموال .

* * *

● **اداء الصوم هو الطريق الى الحرية :**

طلب القرآن من الرسول محمد عليه الصلاة والسلام : أن يبلغ رسالة الله إلى الناس ، دون أن يحمل واحداً منهم على الإيمان بهـا . يقول له : **« وقل الحق من ربكم ، فمـن شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر »** (٦٥) ..

ثم يعلن القرآن بعد ذلك إرادة الله فى شأن المال ، ويسجل أنه سبحانه وتعالى يعطى من نعمة المال والرزق الكافر ، كما يعطى المؤمن : وربما يزيد فى عطائه للكافر عن عطائه للمؤمن . تقول سورة الإسراء :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء (أى الـكافرون والمؤمنـون) **من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم** (أى فى الرزق ، وهم الكافرون) **على بعض ،** (وهم المؤمنون فيعطى الكافر من المال أكثر مما يعطى المؤمن) **وللآخـرة** (أى بالنسبة لجـزاء المؤمن) **اكبر درجات واكبر تفضيلا »** (٦٦) ..

وبقصر رسالة الرسول على إعلان الحق فقط .. وتسجيل القرآن إرادة الله فى شأن المال بالنسبة للمعارض والمؤمن على السواء : يترك الله سبحانه للإنسان جوا طليقا يمارس فيه مشيئته نحو الإيمان ، أو نحو الكفر برسالة الله . وللإنسان الآن حرية ، أى أن إرادته غير مقيدة . وهو غير واقع تحت تأثير الخوف أو التهديد بما من شأنه أن يحمله على أن يتجه اتجاها معينـا بمشيئته .

.. ولكن على أى نحو تكون ممارسة الإنسان لحريتـه ؟ . وبعبـارة أخرى على أى نحو تكون ممارسة الإنسان لحريته ممارسة سليمة ؟ أو ما هى حدود الفوضى فى الرأى ، وما هى أمارات الصحة فى ممارسة الحرية ؟ .

---

(٦٥) الكهف : ٢٩ (٦٦) الاسراء : ٢٠ ، ٢١

إن الفرق بين الفوضى والحرية السليمة فى الرأى هو الفرق بين الرغبة الشخصية ، والتجرد عن هذه الرغبة .. هو الفرق بين الهوى ، والتجـرد عنه ، عند تكوين الرأى والتعبير عنه .

يكون الإنسان حراً ــ أى متخلصاً من هواه ورغبـاته الشخصية ــ عندما يستهدف برأيه المصلحة العامة وحدها ، وإن كانت له مصلحة كأى فرد آخر فى تحقيقها ضمنا .

ولكن يتحرر الإنسان من تأثره بهواه وبرغباته الشخصية ــ أى لكى يكون حراً ــ يجب أن يمارس عبادة الصوم . لأن أداءها يقوم على إرادة الحرمان مما ترغب فيه نفس الصائم وتميل إليه وتهواه . فالصائم يحرم نفسه بإرادته مما تشتهيه نفسه . وليس حرمانه نتيجة عجز وعدم استطاعة، أو نتيجة تهديد وخوف من أحد من الناس .

وعن إرادة الحرمان تتكون عادة الحـرمان نفسـها . وإذا ما تكونت عادة الحرمان تمكن الإنسان من أن تكون له سيادة على نفسه وميولهـا وشهواتها . وفى جو سيادة الإنسان على نفسه يمارس الحرية الصحيحة فى الرأى . لأنه جو « التجرد » من الميول والأهواء .

وهكذا : شاءت إرادة الله ألا يهدد هو ــ الإنسان ــ بالجوع أو بالتشرد فى سبيل لقمة العيش إذا لم يمتثل لإعلان الإيمان برسالة الله .

وشاء توجيه الله لرسوله عليه السلام أن يعلن الحق ، من غير أن يكون له سلطان على أحد فى حمله على الإيمان .

وشاءت هداية الله أن ترسم للإنسان الطريق السليم لحرية الرأى ، حتى لا يظلم نفسه ببقائه فى ضـلال الأهواء والشـهوات . وهو طريق عبـادة الصوم .

ولعظم شأن الصوم فى هذا المجال نسبه الله إليه ووعد بالجزاء عليـه . « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

* * *